

المخلصون يرحلون غالباً

الكتاب : المخلصون يرحلون غالباً  
المؤلف : محمد الجيزاوي  
تصميم الغلاف : أسامه علام  
تدقيق لغوي : محمد عبد الغفار  
رقم الإيداع : 2014/  
التقديم الدولي : 1-83-836-977-978  
الطبعة الأولى : 2015

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة  
ت-011-27772007 02-35860372  
[Noon\\_publishing@yahoo.com](mailto:Noon_publishing@yahoo.com)  
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر



# المخلصون يرحلون غالباً

رواية

محمد الجيزاوي



obeikandi.com

الْحَبُّ إِذَا نَزَلَ

فتحت رسالتك الأولى..

((أستاذ عاصم يزيد..

قرأت مجموعتك القصصية وأعجبتني معظمها.. تستطيع التقدم  
إلى مقر الجريدة لمناقشة بعضها قبل النشر.

يمكنك القدوم في تمام الساعة مساء يوم الأربعاء المقبل.

قسم المواهب.

((سارة..))

ثلاثة أسطر حملت الحلم إلى قلبي واقعًا وحولت أحلامي التي  
كانت أجنة برحم قلبي إلى مشاريع حياة تنبض بالأمل! أي جنون قاذبي  
لحب امرأة لم أرها أبدًا ولم ترني؟! هل يمكن أن تصنع بضعة أسطر  
عاصفة عشقٍ تطيح بأسرار القلوب وتبعثر هداة الصدور؟

ثلاث سنوات وحبك يكبر في صدري كعشب بري لا أعرف متى  
زرعوه ولا من سقاه وأي حصاد سيكون معك.. الحصاد الحلو أم  
الحصاد المرير! لماذا أترك كل ما في يدي لأطارد ظلال الجنون وأرقص  
فوق حبال الخيال؟ هل كان حبي لك هروبًا من إخفاقي الكبير في تحقيق  
السعادة الحقيقية؟ أنت واقع أم وهم اخترعته لأختبئ فيه بهدوء بعيدًا  
عن ضجيج الفشل تمامًا كما خبأت حب الوطن في عباءة الصمت وأنا  
أراه يجلدني كل يوم بسوط الحرمان فهربت من أسره لأسرك؟ فقد

أدمنت أبايدنا مذاق القيود ونسينا ملامح الحرية وغصبت حلو قنا بطعم الهزائم فأدمننا لعبة الركض خلف المستحيل.. فكما صارت حرية الأوطان بعيدة المنال وبقينا نحلم بها على الرغم من الحدود والسدود هكذا اخترت عشقاً مستحيلاً لامرأة لا تعرفني ولم تزني يوماً.. اخترت أن أختبئ في ظل الصمت حتى لا يفجعني الواقع فيك.

ثلاث سنوات من العذاب الحائر والقلق الراسخ في عمق صدري.. فهل كان حبك وهم الأدباء أم لعنة الأقدار التي أصابتي بهزيمة الوطن وهزيمة الحب ففي زمن الهزائم نحيا؟ فهل يمكن أن أحصل يوماً على حرية الوطن وحق السكن بقلبك؟ لتكن مشيئة الله.

هاهي الأقدار تمنحني لقاءً بك! ترى كيف هي عيناك يا سارة؟ هل هما سوداوان حالمتان مثل حروفك؟ خمسة أيام تفصلي عنك.. خمسة سدود مترسة بصخور الساعات تحرسها عقارب الليل والنهار.. سأزحف في دهاليزها حتى أصل إلى قمتك.. حتى الأمس شرفة عينيك.

أنا من تحركت نحوه أسراب النساء وجدتني أنزوي إلى كهفك المجهول وأطلب بابك الذي أجهل طريقه.. أرسلت لك عشرات الرسائل وأخيراً جاءني الأمل يمتطي ثلاثة أسطر.

ماذا سأقول لك؟ هل ستشفع قصصي لديك كمهر عاشق لا يملك إلا الكلمات؟ بأي وجه ستلاقيني؟ بوجه تلك التي تسدي خدمة لكاتب مغمور بأحلامه.. مسربل بالألمه وجراح وطنه.. أم بوجه أنثى تدرك

بغريزتها أي صنف من الرجال أنا لتمدنني كأسًا من حب وباقه من  
وعود؟ هل أحكي لك حماقات عمري وكم أنثى اتخذتها زادًا ليوم لقائك  
حتى أقابلك بخبرة رجل جرّب أصناف النساء؟ هل يروك أن تعرفني أنني  
رجل خلع عن نفسه التاج ونزل عن كرسيه ليمنحك قبلة إخلاص  
مشفوعة بقلب عاشق أحبك في ظلام حياته من دون أن تعرفي بسره ولا  
بوجوده؟

أخيرًا جاء الأربعاء يحمل معه أربع أمنيات: أمنية بأن أراك أخيرًا..  
وأخرى بأن أسمع صوتك يحدثني على مسافة حميمية.. وثالثة بأن تتقي  
بأنني مختلف.. والأخيرة أن تكتشفي شوقي إليك من دون أن تضطربني  
للجلوس على كرسي اعتراف أفقد به بقايا كبريائي.

ترى أي رابطة عنق ستناسب ذوقك؟ وأيها ستسافر إليها عيناك  
الذواقتان لأرتديها لأجلك؟ تراك تحبين اللون الأزرق مثلي؟ في هدوئه وقار  
وشيء من أسرار لون السماء وجموح البحر.. ليكون الأزرق إذاً لون رابطة  
عنقي وقميصي أيضًا وليكن الأسود بنطالي.. لن أرتدي جاكيت لتحيطني  
عيناك بدلاً منه.

أخيرًا وصلت إلى مبنى الجريدة ودلفت إلى مكتبك.. الكل يعرفك..  
ترسم على وجوههم بسمة حانية بمجرد أن أذكر اسمك متسائلًا عن  
مكتبك.. اسمك كلمة سر للسعادة لا يمس أذن أحدهم إلا ويسري نسيم  
الثقة بقلبه ويرد بابتسامة.. بينك وبين السعادة ميثاق شرف ورحمٌ  
موصولة بالصدق.

أزعجني شعورهم بك.. كل أولئك يراودهم خيالك مثلي؟ هل يقضون الليل معك بأحلام عذرية مثلي؟ اللعنة على شركاء متطفلين يقتحمون خلوتي بك.. يقحمون قلوبهم كأشواك بيني وبينك. أشعر أنني أمتلكك قبل أن أصافحك وقبل أن أراك! ليس منهم من يحبك على طريقي فقد أجبرتهم رقتك على حبك بينما أجبرني جنوني على عشقك.

بيني وبينك باب موصد هل أطرقه بيدي أم أنتظر ليخبرك طيف العاشقين أن ثمة مجنونًا بك خلف الباب؟ حسنًا.. حلت السكرتيرة القضية وتكفلت بالطرق نيابة عن شوقي.

أهلاً أستاذ عاصم.

أخيرًا رنَّ صوتك.. تمامًا كما انتظرت.. صوت دافئ.. ليس بالرفيع الذي يحمل طيش النساء ولا الغليظ الذي يخبر عن قسوة أنثى.. صوت امرأة في ثوب حواء الأولى.. عينان سوداوان تخترقان أسرار من تراهما ولا يفك أحد شفرة سرهما الموصد على قلبها.

أي شعور هذا الذي انتابني عند مصافحتك حتى نسيت أن أسحب يدي سريعًا كما يفعل الرجال ليوهموا الآخرين بعفهم ونبيل نواياهم؟ تركت يدي نائمة بين أصابعك ويدك تسحق ثقتي وتخلّف ارتباكًا مزعجًا يفشي سرَّ رجل له نية مسبقة وخطة تم وضعها لمثل هذا اللقاء.

جلست قبالتها أخيراً.. بسمتها لم تغادر شفيتها شريقي المذاق  
أندلسيتي الهوى:

قرأت قصصك أستاذ عاصم.. أنت موهوب فعلاً.. ومفعم  
برومانسية مختلفة.

حسناً جداً.. تحققت الأماني الثلاث الأولى في أول خمس دقائق!  
أشكرك أستاذة سارة.. تمنيت فقط أن تحوز إعجابك حتى لو  
لم تُنشر!

ثم تداركت جملي الفاضحة قائلاً:

لأنني أعرف أنك أديبة مميزة ومجرد إعجابك بأحد أعماله هو  
شهادة ميلاد لقلمي ولي أيضاً!

ابتسمت دون أن يخدعها إطرائي فنثقتها لم تغادرها.. ليست من النوع  
الذي ينسحق أمام الكلمات.. سيدة هي بحق.

قرأت قصصك كلها.. وبعضها لأكثر من مرة.. ووقع اختياري على  
قصة "الظلال". أحب ذلك النوع الذي يمارس فيه العاشق حبه  
عن بعد.. ففعل الحب يقتله.. وكم رائع أن يبقى مشروع حب..  
فبمجرد أن نبدأ في ممارسة أحلامنا تسقط روعتها. لا مكان  
للحلم خارج إطار الفراش.

ابتسمت متسائلاً:

أي الأبطال أعجبك أكثر: "باسل" أم "ندى" التي أحبته في عالمها الخاص؟

لا يروقني الرجال من صنف باسل بطل قصتك.. فإن الرجل كثير النزوات يفقد بكاره قلبه وأنا لا أقدر الرجال المستعملين. لكن ندى احترمت مشروع حبها وعلمت أنه أكبر قداسة من أن تجعله قصة تمشي على قدمين.. ألم أخبرك أن الحب يموت حين ممارسه فعلاً؟

حسناً لتكن قصة "الظلال" إذاً فأنا أيضاً أحبها.

حطبيعي أن تحب أفراداً منحتهم الحياة بنفسك ولا وجود لهم من دونك.

لكن القضية ليست أن نخترع قصة حب.. لكن أن نخترعنا القصة نفسها! كم نحتاج أحياناً إلى تجربة شعور الأسر! هل أسرتك قصة من قبل أستاذة سارة؟

نظرت كمن يستنكر جرأة السؤال.. فتداركتُ:

حرفوا سيديتي.. فلفطك أشعرتني أنني أجالس صديقاً قديماً.

لا عليك أستاذ عاصم.. جيد أن تشعر بهذا لكن ليس جيداً أن أجيب عن سؤال مثله.

لكن لماذا لم أقرأ لك قصة أبداً على الرغم من أنك مشرفة قسم المواهب؟

بعضنا يكتب القصة وبعضنا يقرأها.. الزهرة تخرج عطرها ونحن نستنشقه. هناك من يخبز وهناك من يأكل.. دوري هو استنشاق الأدب والتميز بين العطر الأصيل والمزيف.

ترى هل أعجبتك عطري؟

ابتسمت:

هو ما دعاني لمراسلتك.. كم تريد في قصتك يا أستاذ عاصم؟

هل تقصدين الأجر؟

نعم الأجر.

لا يمثل فارقاً بالنسبة لي.. حدي ما ترينه مناسباً.

قالت وهي تعبت بقلم بين أصابعها.. كنت أحسده لأنه حاز شرف مداعبتها.. تقلبه بين أصابعها كأنها تخشى أن توظف شهوة المداد بداخله:

عمادة نحن لا نعطي أجراً للكتاب المبتدئين.. لكنني أعتقد أنك ستكون ضيقاً كريماً على جريدتنا لأكثر من قصة.. لذا لا بد من إعطائك مقابلاً.. ماذا تقول في ثلاثة آلاف جنيه مقابل خمس قصص؟

قلت بلا تردد:

مجيد.. أوافق بالطبع.

شكرًا لك يا أستاذ عاصم.. سأقوم بتجهيز قصة "الظلال" ليتم نشرها بعد غدٍ على الأكثر.

ابتسمت لها وصافحتها مستعدًا لمغادرة الحلم. وقبل أن أصل للباب قالت:

أستاذ عاصم.. من فضلك اترك هاتفك المحمول عند السكرتيرة.

فقلت متحامقًا:

حرفوا لا أملك غيرة لأتركه!

ابتسمت وهي تراوغ:

أقصد أن تترك الرقم ويمكنك أن تحتفظ بالجهاز.

حرفوا هكذا الأدباء عندما يقررون المزاح يرتكبون حماقات!

فابتسمت دون أن تظهر أسنانها.

غادرت أخيراً وقد حصلت على أكثر مما توقعت.. لكن ليس أكثر مما تمنيت.. فالعاشقون عدوهم الصبر.. لا احتمال لعاشق عن معشوقه أبداً.. الانتظار تميمة العذاب لكل المحبين.

رجعت إلى بيتي.. ابتسمت أُمي وقالت:

رجعت بوجه مختلف يا عاصم "يا رب تكون موفق وما يخيبش  
تعبك يا بني".

نعم يا أُمي حمداً لله سينشرون لي خمس قصص تباغاً.

قبّلت يدها ودخلت إلى حجرتي واستلقيت على سريري متأملاً سقف  
غرفتي. ما أبشع أن يحد بصرك سقف في ليلة حب!

رجوت لو أنني استلقيت تحت عرش السماء أشارك السحاب في  
تخليقه وأقنص من النجوم ضوءها.. لكن لا بأس.. فهذه الليلة لن أكتفي  
بأمنيات لقاء سارة ولكن سأستعيد أحداث لقاء تم بالفعل.. لن أغسل  
يدي.. كيف أتخلص من أثر لمستها؟ الماء سوف يلوّث حميمية المصافحة  
فليس الماء يغسل دائماً.. أحياناً يمحو ما يجب أن يبقى.

أنتِ امرأتي الليلة يا سارة! ولأنتظر ماذا ستمنحيني في أيامي  
المخبأة في عباءة الغيب.. لتكن رحيماً بي أيها القدر.. فإنها أمنيّتي  
الوحيدة.

الوهمُ إذا رحل

مرّ يوم الخميس دون أن أشعر باختلاف نهاره عن ليله فما زلت  
أسبح في لقائنا.. يملأ صوتك كل ما حولي ويحيطني شعوري بك فلا أملك  
أن أقاومه ولا أرغب أيضاً.

استيقظت في الجمعة باكراً وحصلت على الجريدة لأجد قصتي  
منشورة في صفحة كاملة.. وأروع ما في الأمر أنها مقدمة بقلم سارة بثلاثة  
أسطر.. موعوداً أنا بأسطرك الثلاثة يا سارة:

"أقدم لكم قراء صفحتي الكرام قصة لشاب من شباب الأدباء..  
قلم حالم يخلط الواقع بالحياة والحلم بالحقبة ليقدّم قصة تحمل  
أحزان حب عندي.. ما أروع أولئك الكتاب الذين يرفعوننا من أزمة  
الواقع لقمة الأحلام التي تجول بخاطر كل منا لتذكره بحب فقدته وأمنية  
تأمرت عليها الأقدار".

قرأت مقدمتك طوال اليوم.. حقيقة لم أقرأ حرفاً من القصة  
التي أحفظها عن ظهر غيب.. حاولت أن أكتشف عالمك من سطورك  
التي تحدثت عن قلبي.. شعرت أنها رسالة عشق لي وأنت تمنحين خوفي  
قبلة ثقة وتمسحين على رأس أمنياتي بأنامل لها مذاق كلمة اطمئن.

وعلى مدى خمسة أسابيع توالى قصصي وتوالى مقدماتك يا  
سارة.. مع كل قصة أقترّب منك خطوة.. ومع كل تقديم لك تتقدمين مني  
خطوة.. ترى متى سأعيش قصتي معك فإني أخالفك الرأي في الحب؟ ما  
قيمة مشاريع تزيد من حرماننا؟ أي لذة تلك التي نمارس فيها الحب على

فراش العذاب؟ أشتاق أن أعيشك وأحلم بأن تكتبيني أنت.. اجعليني  
بطلاً لقصتك.. اجعليني سرّاً لا تبوحين به إلا بين يدي.

مرت الأيام بعدها وأنا أنتظر اتصالك الذي طالت غيبته.. ذهبت  
إلى مقهى المفضل لأجد صديقي "محمد اليماني" تاجر العطور.. تربطني  
به صداقة قوية ويشاركني هوايتي في لعبة الشطرنج التي أجد بها لذتي  
بعد القراءة والكتابة. الشطرنج هو مباراة حياة.. والحياة هي رقعة  
شطرنج نوائم فيها بين الدفاع والهجوم. معك يا سارة ألعب الشطرنج  
بطريقة مختلفة.. لا أهاجم لأنني لا أعرف من أين يمكن أن أحمل عليك  
ولا أدري أي المواضع في سور قلعتك قابل للانقضاض.. ولا أستطيع  
الدفاع أيضاً لأنني أحلم أن تقومي بغزوي حتى القلب.. أتمنى أن أمنحك  
جسدي رشوة استسلام وأوقع معك معاهدة سلام بإمضاء عقلي وختم  
قلبي.. فلأبقى في منتصف رقعة الشطرنج أمكث.. أنتظر هجومك أو  
مهاجمتك. سألني محمد:

ما لي أراك واجماً؟ خليقٌ بك أن تفرح وقد نُشرت قصصك في  
أكبر جريدة وحازت قبولاً كبيراً من القراء.

سألته:

ما رأيك في سارة؟

من سارة؟

التي تكتب المقدمة لكل قصصي المنشورة.

نعم كاتبة مميزة هي.. أتابعها دائماً وتعجبني مقالاتها.. لكن ما قضيتها؟

تشغلني منذ فترة! متيمُّ أنا بأسلوبها.

قال مازحًا:

بأسلوبها أم بها؟!

قلت:

بهما!

رد بوجه جاد:

اجعل تركيزك في نشر أعمالك يا عاصم ولا تجعل شيئاً آخر يشغلك.

يا صديقي.. الكاتب لا يستطيع أن يكتب حرفاً إن لم يكن مشغولاً بقضية.. وقد صارت هي قضيتي.

لا أفهمك يا عاصم.. أنت لا يربطك بها أي شيء!

وهذا ما يشغلني يا محمد! إنني لا أجد رابطاً بيننا نتواصل على قاعدته.. هل تعرف يا محمد؟ أنا متابعٌ لها منذ ثلاث سنوات.. أحتفظ بكل حرف لها سواء ما كتبه من خواطر في عمودها بالجريدة أو على مدونتها الخاصة.. أحتفظ بنسخة من كل كتاباتها ولها صورة صغيرة لا تغادر حافظتي اقتطعتها من الجريدة منذ فترة. هذه المرأة أعادتني مراهقاً لا أدري هل أنا معها الكاتب الناضج أم المراهق الأحمق ولا يعنيني أن أكون أيّاً منهما.. يعنيني فقط أن أظل معها ولو على مساحة عمود في جريدة أو مدونة على الشبكة العنكبوتية. منذ أن تعلقت بها وأنا متنسك عن كل ما سواها من النساء.. أمارس معها لعبة الإخلاص بلذة عجيبة.. أغار على غيرها من أن تمس يدي امرأة أخرى ولو على سبيل المصافحة. أعلنت نفسي وقفاً عليها وحكراً على وجودها ورهنًا لحيها.. مرهون أنا يا صديقي على حب امرأة لم تكن تعرف بوجودي قبل شهرين.. لا بأس.. دعنا الآن من الجريدة ومَن بها.. ما بالك بمباراة شطرنج؟ أشتاق للنصر أو الهزيمة.. فقد أرهقني أن أظل واقفاً بين بين.. لا منتصراً ولا مهزوماً.. فقط موجود.. ما قيمة الوجود بغير نصر ولا هزيمة؟ فمن دون تجربة مربكة نصبح مجرد أشياء من جنس الكائنات المتحركة على قدمين.

سحكك من الشطرنج الآن! ماذا ستفعل مع علياء.. تلك المسكينة التي تحبك منذ سنوات وتنتظر يوماً يجمع بينكما؟

عملياء قضية أخرى لا أدري ماذا أصنع معها! كلما تقابلنا أطلبها  
بهدنة لتراجع فيها حساباتها وأكرر لها أنني أشك في قدرتي على  
إسعادها.. تلك الحجة التي يتذرع بها كل رجل ينوي أن يرحل  
عن حبيبته.. علياء لها عندي حب خاص أو مكانة خاصة.. لكنه  
ليس الحب الذي أعرفه أو أرضاه لنفسي.. إنه حب اخترعه..  
وأنا لا إيمان لي إلا في حب يخترعني.. لا أريد حبًا أمتلك خيوطه  
بل يمتلك هو خيوطي.. الحب يوجدنا ولا نوجد به بأنفسنا..  
الحب ليس إرادة ولا قرارًا.. الحب قدر لا نملك إلا أن نشاهده  
ونسير على خطاه التي يرسمها هو.

إذًا أنت تبيع الذي تدري بالذي لا تدري.. لا يمكنك الحصول  
على كل شيء يا عاصم! أنت تريد أن تحصل على من يحبك ومن  
تحبه! إن الذي يختار كل شيء لا يحصل على أي شيء.. علياء  
قدمت لك كل ما تستطيع بشهادتك أنت.. كم من مرة أخبرتني  
عن حيا لك وتفانيها من أجلك!

فابتسمت دون أن تبدو أسناني أو ينفرج فمي ابتسامة المكتئب وقلت:

تملك هي القضية يا محمد.. أنا دائمًا كنت أحدثك عن حيا لكن  
هل تذكر مرة واحدة حدثتك فيها عن حيا أنا لها؟ هل أخبرتك  
يومًا أنني سهرت من أجلها؟ هل بكيت بين يديك من فرط شوقي  
لها؟ إن الحب الذي لا يمنحنا لذة البكاء ليس بحب! بين الحب  
والبكاء أو اصر صداقة يختلف معها طعم البكاء.. نبكي لحرماننا

أو لفرط لذتنا.. تستوي فيه اللذة والألم ونحرص عليهما على حدٍ سواء؛ لأن اللذة هي دليل الشوق.. والألم برهان الصدق.. وأنا لم أعرف مع علياء اللذة ولا الألم! كل ما أعرفه هو الاقتناع.. فقط أنا مقتنع بوجودها كاختيار وليس كقضاء.

قال كمن حار في الدفاع عن قضيته:

أنا ما زلت أسألك: ماذا تنوي أن تفعل معها؟ هل يمكن أن تترك فتاة تحبك من أجل كاتبة لا تعرف بالكاد إلا اسمها ويشاركك فيها كل من يقرأ لها؟ سارة كاتبة مشهورة.. ما الذي يمكن أن يغيرها بك؟ لماذا تترك علياء من دون محاولة جادة منك لإقامة حياة بينكما؟ حان لك أن تترك الأوهام يا عاصم وأن تكون جاداً.. أنت على مشارف الثلاثين وعلياء لا يمكن أن تنتظرك إلى الأبد!

حسناً يا محمد فلتقم أنت بهذه المهمة من أجلي.

أوافق.. هل تريد أن أفاتها في جعل علاقتكما رسمية أو أخبرها بأنك مستعد لخطبتها وإن كنت أفضل أن تخبرها أنت بنفسك؟

فتجهمتُ:

أنت تصعب الأمر عليّ يا محمد! أنت لم تفهم قصدي.. أنا أريدك أن تخبرها بأن تبتعد عني! أنا لا أستطيع الاستمرار في علاقتنا.

أنت مصرٌّ إذاً على موقفك.. لماذا لا تخبرها قرارك بنفسك؟

صعب جداً يا محمد! لن أحتمل دموعها! ما أشده من ألم ألا نجد شيئاً نمنحه لمن أحبونا غير البكاء.. كيف أكافئ كل ما أعطتني من بسمات بسيل من دموع؟ لا.. هذا صعب جداً! لن أحتمل أبداً.. أرجوك فم بهذا يا محمد من أجلي.

حكم أنت أناني يا عاصم! ألا تريد حتى أن تدفع ضريبة قرارك باحتمال شيء من الألم في مواجهة تلك المسكينة؟ ألا تريد أن ترى ماذا جنت يدك عليها؟ وهل غيابك سيخفف من وطأة الأمر؟ هل عدم رؤيتك لدموعها يعني أنها لن تبكي ولن تتألم؟ أنا ما رأيت في حياتي فتاة أحبت رجلاً مثلما أحبتك علياء.. إنها لا تعيش إلا لك.. ولا تتنفس إلا بك.. أقسم إنها لا تستحق هذا الجزاء. لك الله يا علياء.. ليتني أستطيع أن أخفف عنها!

بل أنا واثق من قدرتك على التخفيف عنها.. أرجوك يا محمد لا تضاعف آلامي! هذا خير لها! هل تعتقد أن علياء تقبل بوجودي معها لأنني فقط ملتزم بهذا إنسانياً؟ صدقتي هذا سيقتلها كل يوم ألف مرة.

حسناً يا عاصم سأقوم بالأمر.. أعدك سأبذل كل ما أستطيع.

رجعت إلى البيت أخيراً بعد حوار مرهق مع محمد.. عدت لأجديني وحيداً مرة أخرى.. ما الذي أفعله بنفسني؟! ها أنا أترك من أجلك يا سارة كل ما لي.. ها أنا أغتسل من ذنوبي ومن فضائلي أيضاً لأكون لك رجلاً بلا سابقة إنسان.. لأكون معك بعضاً جديداً وأدم الأول الذي يليق بحواء الأولى.. ها أنا أهدم كل السروح لأقيم بيننا قصراً من خيال على أرض من رمال.. ها أنا أختار الحلم المستحيل بدلاً من الحقيقة السعيدة في رأيهم.. هل حب علياء هو مهر جديد أقدمه في محرابك؟ كم من الأضحيات والقرايين يلزميني أن أقدم لأحصل عليك؟!

دخلت أمي إلى الحجرة تحمل لي طعاماً وأصرت على أن أكل معها وأنها لن تأكل من دوني.. كانت تعرف دائماً نقطة ضعفي أمام ضعفها.. لا أملك إلا طاعتها.. مسحت على رأسي وقالت:

أراك مشغولاً هذه الأيام وحالك لا يعجبني! أخبرني يا حبيبي ما الذي يهملك ويحزنك.. لعلك تجد عندي الراحة! يكفيني حزني وانشغالي على أخيك الذي سافر ولا أعرف عنه شيئاً منذ سنوات لولا اتصاله الأخير لذهبت روجي حسرة عليه.. فلا تزد من همي يا عاصم!

مجرد رؤية وجهك راحة لي يا أمي! لكن فقط ادعي الله من أجلي  
أن يمنحني قدرًا رحيمًا.. وإن كان قضائي قاسيًا فاسأليه أن  
يمنحني القدرة على تقبله بشرف رجل.

بكت أمي وقالت:

تمنسي فداك يا عاصم.. ثق أن الله يا بني سيجعل لك مخرجًا!  
لكن لا تنشغل عن الصلاة والدعاء فإن الله لا ينسى من يذكره..  
ألقِ بأحمالك على بابهِ فإنه كريم لا يرد سائلًا.

ألقيت برأسي على صدرها وأجهشت بالبكاء حتى فرغت من  
الدموع ولم تبق إلا حشجة النشيج.. إن صدرًا نبكي عليه بغير خجل هو  
محراب قدسي نعترف فيه بخطايانا ونمارس استغفارنا بأدعية من دموع.

خرجت أمي بعدما تلت على رأسي آيات من القرآن بصوتها الحاني  
وهي تمسح على رأسي وظهري وصدري كمن يريد أن يغسل جسدًا من آلام  
روح ويمحو حزنًا مطلقًا من شرفة جسد. ما أعظمك يا أمي! طالما ربطت  
بيني وبين السماء ومهدت لي طريقًا من دعاء.. كنت أسمعها في صلاة الليل  
وهي ترفع كفيها ضارعة أن يجعلني الله من أهل الدين.. لماذا خابت  
دعواتك يا أمي وأنا موقن بصدقك وواثق من كرم الإله؟ تراني هل أنا  
العنصر الفاسد في المعادلة الثلاثية بين الداعي والمدعو والمدعو له؟  
إلهي لتشملني رحمتك إن لم أكن أهلاً لعفوك فأنت أهل لأن تعفو.

غلبني النوم وأنا على سريري بكامل ملابسي التي قضيت بها يومي. كانت ليلة مريكة كثرت بها أحلامي الغريبة.. تارة أحلم أنني مربوط في قطار يسير بأقصى سرعة وأنا مسحول على قضبانه.. ومرة أراني أغوص في بحر حتى الغرق.. يتحطم جسدي تحت قبضة الماء وتنحبس روحي في جوف قوقعة سوداء محروسة بترانيم سحر قديم.. وتارة أخرى أراني مشنوقاً في حبل يمتد بين الأرض والسماء ترجمني النجوم بشهاب ثاقب ويأتي طائر أخضر فيمزق صدري ليلقي بقلبي في يد الهواء وأنا أراه يتيه في سحابة سوداء فلم أعد أراه ولا يراني.. وأخيراً جاء النهار لينقذني من يد ليل استبد براحتي وقضى على طمأنينتي.

مر أسبوع آخر أنتظر هاتف سارة ليحيي موت ألمي ويوقظ نوم أمنياتي لكنها بخلت بمنحي بعض صوتها.. كلما رن الهاتف اضطربت خشية ألا تكون هي فأتجرع حسراتي.. وخشية أن تكون هي فينفضح شوقي لها ولهفتي عليها.

ذهبت إلى عيادتي التي صرت أهملها كثيراً.. وجدت في الآونة الأخيرة رغبة عارمة في العمل.. حتى إنني أصبحت أذهب قبل مواعدي بساعتين أو ثلاث ولا أعادها حتى بعد الانتهاء من مقابلة المرضى.. فليس لي طاقة على مواجهة نفسي من دونها.. ما أثقل شعور الخيبة.. وما أشد عذاب من ينتظر شخصاً على الطرف الآخر ولا يدري هل ما زال يذكره أصلاً أم لا.. كانت سلوأي الوحيدة أن أمنح بسملة لطفل كان يصرخ منذ قليل.. ما أجمل أن نمنح السعادة لأحدهم.. حقيقةً إنهم هم أصحاب الفضل حين

يعطوننا الفرصة لإسعادهم.. طب الأطفال أشبه بالاعتناء بحديقة مزروعة بأطفال يذبلون والطفولة هي الصفحة البيضاء في حياتنا..  
وحينما أعالجهم أشعر أنني أعدت لصفحتهم نصاعة البياض.. كل طفل أعالجه كأنه هو من يعالج جرح قلبي.. كل بسمة أزرعها بشفاهم كانت ترفع يد الكآبة عن رأسي.

وفي يوم خميس وقبل مغادرتي العيادة حضر لي زوجان يحملان طفلاً في الثالثة من عمره يصارع الموت وسط بكاء أمه الميرير وذهول أبيه. أخبراني أنه شرب كوباً من الكلور الخام كان يظنه كوباً من حليب.. الطفل بين يدي يئن مثل هرة صغيرة عمياء ينهشها برد الشتاء بعيداً عن أمها.. كعصفور بين فكي ذئب يغرس أنيابه في جسده الضئيل. حاولت أن أعمل له غسلاً سريعاً باذلاً كل طاقتي لأستنقذ الطفل من بين مخالاب الموت ولأستنقذ أبويه من بين فكي الحسرة.. لكن الطفل لم يحتمل الأمر.. وبعد دقائق غربت شمس قبل أن تشرق.. وسقطت ورقته قبل أن تنبت. مات الطفل وأنا محاصرٌ بخيبة جديدة وفشل جديد.. أرى حياته تتلاشى من بين يدي تماماً كما تلاشت السعادة من حياتي.. ضاعف حزني أن علمت أن الأبوين رُزقا به بعد عشر سنين من الحرمان من الإنجاب.. فقدا كنزهما الوحيد الذي وضعاه بين يدي فعجزت عن أن أفي بثقتي.. صارت يدي تمنح الموت أكثر من منحها الحياة! يدي التي منحتني حباً بطعم الشقاء ومنحت علياء غدرًا بطعم المهانة.. هاهي تمنح هذين الأبوين فشلاً بطعم الموت.

حمل الوالد المكلوم زهرته التي سقطت أوراقها وانهار غصنها..  
حمل فراشته التي أحرق الموت جناحها.. حملاً حلمها الصغير ميثاً  
ملفوفاً في شال أمه الأبيض.. جاء إليّ يطلبان الحياة وخرجنا من عندي  
يحملان الموت.. طرقتا بابي على أنه باب أمل فأعطيتهما بدلاً منه مقبرة  
للصغير.

عدت إلى بيتي أحمل أماً فوق الألم وجرحاً في جوف الجراح.. عدت  
ليبيتي.. عدت لغرفتي التي صارت خزانة مثقلة بأسراري الثقيل تحوي  
جدرانها خيبيتي ويحوي صدري الآلمي.. لست أدري أيهما أكثر صبراً! تراه  
جسدي أم الجدران؟!

في هذه الليلة أخذت قراراً بالتوقف عن ممارسة الطب ولو لحين  
فقط.. وقررت أن أكمل دراسة الماجستير في الجراحة العامة.. هذا  
المشروع الذي طالما أجلته وأهملته. لست أدري لأي شيء قررت ذلك..  
هل هو هروب من مواجهة الموت مرة أخرى.. أم لأنني صرت خبيراً  
بالجراح.. أم هو هروب من حبك يا سارة؟ فدائماً ما نبحت عن شيء  
يلهينا عن خيبات قلوبنا نخبي فيه جراحنا. من أكثر مني جراحاً أيها  
الكون؟ فامنحيني يا أقداري القوة كي أمسك مشرطاً لأجتث جراح  
الأخرين إذ عجزت عن اجتثاث جراح نفسي. أيهما أشد أماً وأيهما أصعب  
في الزوال: جرح غائر بالجسد أم جرحٌ غائرٌ بالروح؟

مع الأيام صرت أكثر ثقة بالقضاء.. أمشي وحبله ممتد من عنقي  
بطرف وبرحم الغيب بطرف آخر.. أسير صامتاً أتلقى ضرباتي بصبر

وشيء من الثبات.. عندما ذهبت إلى المشفى الذي أعمل به وأخبرت المدير بقرار الاستقالة استنكره بشدة ورفض قبول استقالتي وزعم أنني من أفضل الأطباء الشبان الذين يتوقع لهم مستقبلاً مشرقاً. عن أي إشراق يحدثني وقد صرت لا أتقن إلا لغة الغروب والهروب؟! الاستقالة كانت ستوفر على نفسي كثيراً من العناء.. بها سأنسى الطفل الذي مات بين يدي.. وبها لن أضطر إلى مواجهة علياء التي تعمل محاسبة بالمشفى.. علياء التي مر على علاقتي بها سبع سنوات منذ تخرجي وعملي بالمشفى طبيباً تحت التمرين وسرعان ما حصلت على ثقة الجميع وحبهم.

دار أمام عيني شريط ذكرياتي مع علياء منذ لقائنا الأول حينما تعرفت إليها بعد شهر من العمل ذات غداء بمطعم المشفى.. وتوالت لقاءاتنا به على الرغم من أنني لم أكن أستسيغ طعامه.. فليس شيء أقبح من أن تتجرع طعاماً بنكهة المرض وأنت ترتدي البالطو الأبيض.. ولكن كان وجودها يضيفي بهجة تنسييني كل ما حولي.. وصرت أتأمر للحصول على دقائق تجمعي بها حتى جاء يوم طلبت فيه مقابلي خارج المشفى لتستشيرني في أمر مهم يخصها.. وعلى الفور رحبت بتقديم مساعدة فرحاً بثقتها.

قابلتها بأحد مقاهي وسط البلد اسمه "البورصة".. ذاك المقهى الذي يزدحم بالمصريين والأجانب على حدٍ سواء.. ويجتمعون كلهم على لقاءات حميمية بين الأصدقاء والعشاق.. ولم أكن أدري أي الصنفين أنا

وعلياء.. فقد كنت أعرفها بالكاد منذ أسابيع لا تسمح بصداقة قوية وقطعاً لم نكن عاشقين.

على أي حال فقد اجتمعنا بعيداً عن تلمص الزملاء.. فإن آخر شيء تشعر به في مؤسسة بمصر هو الخصوصية.. وأي حوار بين زميل وزميلة يكون الحديث فيه هادئاً والعيون متواصلة فوراً تنهال توقعات الآخرين بأنها قصة حب تبدأ أو علاقة أئمة تنسج خيوطها. ما زلنا في أوطاننا العربية لا نقتنع بتلك الصداقة التي يمكن أن تجمع بين رجل وامرأة بعيداً عن حبائل الشيطان حتى لو كنا وسط العشرات ودون شبهة خلوة.. ويزيد من هذا الواقع قبح الممارسة وتبليت النوايا السريرية عند الرجال.. فقد يلتقي أحدهم زميلته ليحدثها عن ضرورة الحجاب والتزام الأخلاق ثم يعود لبيته يتخيلها رفيقة فراشه ليمارس معها عاداته السرية.. صرنا مجتمعات منافقة تقول ما لا تعمل وتفعل كل ما تنهى عنه.. تسب الغرب المنحل وتتمنى في الوقت ذاته أن تتاح لها فرصة لتجربة كل قبائحه شريطة أن تكون في السر.. لا فضل لنا على الغرب حين نمتنع عن قبائحه فقط لأننا لا نستطيع ممارستها في العلن.. الفضيلة الحق أن نترك ما نستطيع فعله لو أردنا.. لا أن نتنزه عما لا قدرة لنا عليه أصلاً.

حسناً علياء.. أرجو أن يكون الأمر الذي يشغلك وطلبت رأيي فيه أمراً رحيماً.

حقيقة يا عاصم لا أدري كيف يمكن أن أخبرك وما زلت مذهولة من قدرتي على أن أطلب لقاءك خارج نطاق العمل! هل تعرف يا عاصم؟ أنا لم ألتقي إطلاقاً رجلاً يمثل هذا الشكل.. عندما كنت في الجامعة كنت لا أقبل بأي تعامل مع أصدقائي خارج أسوار الجامعة.. والأمر نفسه في العمل.. ولكن شعرت نحوك بارتياح كبير وثقة لا أدري مصدرها.

صديقي عيلاء ليست القضية أن نثق بالآخرين ولكن أن نثق نحن بأنفسنا.. فنحن محرومون من تفعيل إنسانيتنا وننتظر أن يشير لنا الآخرون إلى مخبأ ضمائرنا.. يجب أن نثق بأنفسنا سواء أكننا في المسجد أم في الحانة؛ لأن الطهر والنقاء لا تمنحهما الأماكن ولا الناس إنما يكمنان بداخلنا.. لو امتلكننا النقاء ووثقنا بأنفسنا سنصنع كل ما كنا نحسبه بعيد المنال.. ليست الميزة أن نحصل على أفراد صادقين مخلصين.. لكن الميزة والفخر أن نفعل ضمائرنا ونصنع من الخبث الصدق ومن الأشرار أحياناً.. أن نحيل الخرائب إلى بساتين ونجعل من الأعداء أصدقاء مخلصين.. أن نعتصر من الهزيمة نصراً وأن نخرج من الخيبة بإرادة وعزيمة.. هذا هو الفخر الحقيقي.. ليس في تجنب الناس راحة وإنما في جعلهم حقولاً آمنة.. الحرية في وسط المجتمع والناس وليس في التعري في غرفة مغلقة ولا الغناء في حمام حتى لا يكتشف الآخرون سعادتنا.. الأروع أن نكون واثقين أنه لا فارق بين لقاء زميل داخل سور الجامعة أو

خارجه ما دام كل منا يثق بنفسه والآخر.. أما إذا افتقدنا الثقة والأمان فلن يجدينا وضع ألف سور حولنا؛ لأن شظايا الآخرين ستصيبنا حتى ونحن مختبئون في ذواتنا.

يعجبني منطقتك وأسلوبك الراقي في التفكير.. وهذا ما شجعتني على لقائك واستشارتك.. يوجد طبيب زميل لاحظت أنه يتقرب مني منذ فترة.. حتى إنه جاءني بهدية في يوم ميلادي الذي لا أدري من أين عرفه.

الأمر بسيط! فإن هدية في مناسبة لا تعني كونها أكثر من هدية.

ربما.. لكن للأنتى قدرة على استشعار ما يدور في صدور الرجال من حولها ومعرفة رسائل عيونهم وفك أسرارهم من نبذة صوتهم حتى حين إلقاء تحية في صباح.

فابتسمت وقلت لها:

تفضيتي أنني لم أجرب شعور الأنثى من قبل.. لكنني أثق أن النساء لديهن أدوات محروم منها جنس الرجال.. على أي حال ما قضية هذا الرجل؟

لقد حدثني منذ يومين في رغبته في الارتباط بي والتقدم لخطبتي.

جيد... إن كنت ترين أنه مناسب فما القضية؟

ليست المشكلة أن يكون مناسبًا.. وهو كذلك بالفعل.. لكن المهم أن أكون أنا راغبة به.. فإنني لست مؤمنة بأن تكون المرأة بابًا موصدًا يفتح لأول طارق لمجرد أن يده طرقت بشكل جيد.

يناسبني هذا النهج وأوافق عليه.. العلاقة لا بد أن تكون جملة بفاعلين وليس فاعلاً ومفعولاً. لا بد من مشاركة الرغبة وأن يتحرك الطرفان بالقوة نفسها.. كلاهما يجب أن يكون فعالاً.. ففي العلاقة بين رجل وامرأة تسقط نظريات نيوتن ولا معنى للفعل ورد الفعل.. لتخبريه إذا أنك غير مستعدة للارتباط.. الأمر بسيط.

ابتسمت قائلة:

ميا عزيزي.. في مجتمعنا يعتبرون أن امرأة ترفض صفقة رجلٍ مناسب إما غبية وإما أن لديها سرًا.. أُمي تشجعني على قبوله وتزعج من كثرة رفضي لكل من يتقدم لي.

لا بأس ببعض الانزعاج.. فلا يمكن أن نغامر بفقد قلوبنا حتى لا نسبب إزعاجًا لأحدهم! ليكن لك شجاعة في مواجهة الأمر ولا تعبري الآخرين انتباهك.. ألم أقل لك لا بد أن نثق بأنفسنا؟ ودليل الثقة أن نؤمن باختيارنا وأن نحترم قناعاتنا فعلاً وليس قولاً فقط.

انتهى لقاءنا الذي تكرر بعد ذلك مراتٍ عديدة.. أما في المشفى فكنا نتجاهل بعضنا بعضًا. إن الخوف مزروعٌ بداخلنا ويد المجتمع قوية ظاهرة حتى على أولئك الذين يزعمون أن لهم نهجهم. خضعنا لتقاليد المجتمع ولم يعد ممكنًا أن نتلاقى علنًا في العمل بعدما شعرنا أن في صدورنا ميلًا لبعضنا.

ولم يمضِ شهران بعد لقاءنا الأول حتى صارحتني علياء بحبها واعترفتُ لها بأنني أبادلها الحب. لم تكن لديّ الشجاعة الكافية لأختبر صدق شعوري.. ولم أستطع أن أفرق - وأنا ابن الثالثة والعشرين في ذلك الوقت - بين الاقتناع والعشق.. فالحب في حياتنا كالزواج نمارسه بطريقة أخبرونا أنها الوحيدة المناسبة.. لا نفرق بين المودة والعشق.. بين التعود والارتباط!

هكذا كان حالي مع علياء على مدار سبع سنوات.. تعود بطعم الحب! دائمًا ما كانت تبهزني بقراءة أفكاري وتأسرني بتفانيها في إرضائي.. لم تستطع أن تعرف أهم ما يميز العاشقين العقلاء.. وهو أننا لا نحتاج إلى دائرة تحتوينها ولا إلى نسخة أخرى منا! لماذا لا نكون دوائر بينها تماس ولكنها تبقى مستقلة؟ لماذا لا يكون لكل من المحبين عالمه المستقل وشخصه المنفرد الذي يعشقنا به؟ التلاشي والتماهي يسحقان الحب سحقًا فنصير أنانيين نحب أنفسنا ونظن أننا نحب من يرتبط بنا.. نحب أنه يلي رغباتنا ويشبع توقعاتنا ويحقق فينا تصور التسيد والتملك. أنا

لم أكن أريد جارية تطيعني فقط.. بل كنت أريد عاشقة أعشقها وأحتاج لأن أمنحها حيي أكثر من حاجتي لأن تمنحني حيها.

علياء كانت ككل عاشقات الشرق.. لا تتحرك إلا في الظل وتعجز عن اتخاذ القرار.. كل دورها منحصر في تدعيم قراري.. لذلك كان عليا أن تتقبل قراري الأخير بعد سبع سنوات.. قرار الرحيل والإقلاع النهائي عن مطارها الدافئ لأحلق بعيداً في آفاق باردة يغطيها الضباب.. آفاق لها مذاق سارة التي صنعت حيي لها عن بُعد وأطلقت أسراب الهوى بصدري وأطارت بكل أغطية الليل فلم يبق لي إلا أن أسهر بها ولها. هكذا دار شريط علاقتي بعلياء تذكرت فيه علاقة امتدت لسنوات طوال.

بعد جدال طويل مع مدير المشفى قدم لي اقتراحاً مناسباً بأن يمنحني إجازة مفتوحة لحين انتهائي من دراسة الماجستير وليس استقالة نهائية. ناسبني عرضه وحرصت أن أنتهي سريعاً من الإجراءات حتى لا أصطدم بوجود علياء ولا أضطر لممارسة طقوس الكذب أمام سيل أسئلتها عن سر تغيري معها.. ترهقني دائماً أسئلتها اللانهائية وغيرتها المرهقة من كل من حولي.. لم تطالبني يوماً بالزواج أو وضع حد لعلاقتنا.. كانت دائماً تقول لي دعني أحبك فحسب وبالمقابل إن لم أملاً عليك قلبك فلا تملأه بغيري.. لا تشعرني بالفشل في اختياري الوحيد.. كلماتها كانت تقطع عليّ السبيل دائماً لإنهاء الأمر.

أصبح يومي بعد ذلك مكرراً روتينياً بين القراءة والمقهى وأحياناً دراسة الماجستير الذي كنت أعلم يقيناً أنه كان هروباً وانسحاباً أكثر منه

مشروع علم ودراسة. وفي لقاءاتي محمد اليماني كنت أتحاشى التحدث عن سارة لأنني أعلم مقدماً موقفه من الأمر.. ولم أفتحه فيما طلبته منه من إنهاء موضوع علياء نيابة عني.. كنت أثق دائماً بحكمته وإخلاصه.. على الرغم من أنه يكبرني بخمس سنين فقط لكن كنت أستشعر في آرائه الأمان والثقة.

ذهبت لمقابلة محمد بالمقهى.. وصلت قبله واخترت طاولة تقع في ركن منفرد حتى لا يشاركني أحد أو يطلب أن أعب الشطرنج معه.. فلم أكن بحالة مزاجية تسمح بهذا.

جاء "أسامة" النادل ليضع لي الزجاجية التي أصبحت أدخلها بشراهة.. كان أسامة لا يروقي بعينيه الباردين وابتسامته الصفراء التي كانت استجداءً لمنح البقشيش وهو يرحب بي وينهال بالمديح على كرمي وأنا زبونه المفضل.. كنت أعرف جيداً أنه يكرر الكلام نفسه على كل من يقوم بخدمته.. لكن علينا أن نبتلع الطعام بإرادتنا ونستحسن صوت النفاق المزعج.. هكذا علمتنا الحياة في مصر.. نصفنا ظالم والنصف الآخر منافق!

أسامة كان حاصلاً على ماجستير في الجغرافيا.. ومع ذلك لم يجد عملاً إلا أن يكون نادلاً في مقهى.. كنت أشعر بنظرة الحقد في عينيه على الجميع وكأنه يحمّلنا نتيجة إخفاقه.. كثيراً ما نصحتته بأن يواصل دراسته ليحصل على فرصته ذات يوم لكنه كان جائعاً للمال.. وبعد عدة أحاديث معه علمت أنه فارغ من الثقافة وأنه حصل على الماجستير عن

طريق ذله لأستاده بالجامعة فكان طالبًا قبل الظهر وخادمًا بعده.. يقوم بكل ما يكلفه به الأستاذ الذي يتابع بحثه.. حتى إن زوجة الأستاذ كانت تتصل به ليرسل أسامة يشترى لها لوازم البيت! أي علم وأي شهادات تلك التي يحصل عليها طلبة الدراسات؟! أصبح الطريق الوحيد للحصول على هذه الشهادة إما أن تكون ابناً لأحد أساتذة الجامعة وإما أن تكون خادماً لزوجته.. فهل ستنهض أمتنا ذات يوم؟ وهل سيتغير حالنا من أمة أصبحت عالة على الأمم حتى أصبحنا نستورد سجادة الصلاة من الصين وفانوس رمضان الذي كان اختراعاً مصرياً خالصاً؟ كل شيء أصبح مطبوعاً بتلك الجملة المقيتة "صُنع في الصين": الملابس.. الأجهزة.. لعب الأطفال.. حتى أصبحت أعتقد أننا عندما نتزوج سنكتشف مطبوعاً على أقماع زوجاتنا: "صُنع في الصين".. فهذا زمن السلع المزيفة والإفلاس الوطني.

لا أدري لماذا تأخر محمد.. محمد كان أرملاً بعد وفاة زوجته التي تركت له ابنتهما الوحيدة.. وكان يكرس حياته لرعايتها ورفض الزواج حتى لا يأتها بزوجة أب تمارس عليها القهر.. معللاً موقفه بأنه تربي يتيمًا وذاق الويل على يد زوجة أبيه التي كانت تحرص على إذلاله.. مما صنع منه رجلاً متحملاً للصعاب. جاهد في الحياة حتى حصل على الليسانس من كلية الألسن قسم اللغة الإنجليزية.. لكنه اختار أن يعمل بالتجارة حتى صارت له سلسلة من محلات العطور الشهيرة باسم "عطور اليماني". وبعد فترة قال لي:

لماذا لم تسألني عن أمر علياء أو ماذا صنعت معها؟

فقلت له:

لأنني أحترم رؤيتك للأمر وأثق أنك ستفعلها في الوقت المناسب.

على أي حال اعتبر الأمر قد انتهى بالفعل.. فقد قابلتها أكثر من مرة خلال الأسبوع الذي تغيبت فيه عن المقهى.

كيف تم الأمر يا محمد؟

قال متأثراً برفقة وحزم غامرين:

أخبرتني عن رغبتك في منحها فرصة أفضل وأنت تعاني ارتباكاً في تحديد أولوياتك ولا ترغب في أن تجعلها رهناً لظروفك. فقالت: يمنحني فرصة؟! عن أي فرصة تحدثني أستاذ محمد؟ إن علاقتنا لم تكن صفقة قابلة للربح والخسارة.. لقد كانت عهداً لا يقطعه إلا الموت.. ثم ما ظروفه التي ستجعلني أغير رأبي بعد سبع سنوات لم أسأله فيها يوماً ماذا ينوي أن يفعل؟ لا تعتذر نيابة عنه.. كنت أعرف أن هذه نهايتي المحتمومة على يده.. كنت أرى ارتبাকে دائماً في كل مرة أمنحه فيها حبي كمن يشفق على مصير شخص يعلم أن نهايته هي الهلاك.. وكنت أختزن دموعي وأجمعها ليوم سيطول فيه سكب الدموع.. لقد أحببت عاصم في وقت لم يكن مؤهلاً فيه للحب وكنت أنا ممثلة بحبي

وشوقي.. دائماً هي الحياة معي لا تأتي إلا في التوقيت السئ  
والموقف غير المناسب. ثم بكت حد الانهيار وأنا عاجزٌ أمام  
دموعها وأنا أرى روحاً تتبخر وأحلاماً تتلاشى وأمالاً سقطت  
صريعة لقرارك يا عاصم. حقاً لقد ندمت على قيامي بدور  
المقصلة بينكما ولست أدري أيكما أفدح خسارة: أنت أم هي!  
لكن يقيني أنك فقدت قلباً أحبك بكل ما يملك وكل ما يستطيع.

أطرقت ممتلئاً بحزني:

فداؤك نفسي يا علياء! لكن لا يمكن أن أستمع معها من دون  
شعور صادق! أقسم لك لو طلبت حياتي لما تأخرت عنها.. ولو  
كان الأمر بيدي لمنحتها قلبي ولكن لسنا نحن من نحرك أقدارنا..  
ولا تدق طبول القلوب بعصي إرادتنا.. وإنما يمسك بها كف  
القضاء فيمنح قلباً لمن لا يستحق.. نعشق من لم يشعروا بنا  
يوماً ونرفض من يحيون لأجلنا! ألم أقل لك إنها تصاريف  
القضاء وعلينا أن ننتظر حتى ينزل الستار عن الليلة الأخيرة  
لنهايات مفتوحة لم نكتب نحن قصتها.. أشكرك يا محمد فقد  
أرحمت ضميري من عذاب طالما أرقني.. وأقسم لك ليس لسارة  
علاقة بالأمر.. فلست من هؤلاء الذين يتركون قلباً من أجل  
قلب آخر وحباً من أجل حب آخر.. هؤلاء تجار نخاسة.. إنما أنا  
حقاً لم أشعر صدق الحب في قلبي يوماً.. وكم حاولت وبذلت

من جهد.. لكنها إرادة الله فكم نصطدم بأشياء في توقيت سيئ  
ربما لو صادفناها في وقت آخر لتغيرت حياتنا.

فتبسم قائلاً:

وهي أيضاً ترى أنك كنت التوقيت السيئ بالنسبة لها.

ها أنا تخليت عن كل ما كان لي يا سارة وأفرغت قلبي عن كل ما  
يشغلني عنك لأبدأ السير في طريق مجهول ولست أدري هل سألتقك في  
نهايته أم أنني سأصطدم بحقيقة ترعبني وأجد نفسي في النهاية كثور  
الساقية أسير في دائرة بعين عمياء أبدأ من حيث انتهيت وأنتهي من حيث  
بدأت.. هل ستبدأ قصتي معك؟ وهل ستتحركين في اتجاهي كما تحركت  
أنا إليك بكل يقيني؟ لتأت الأيام بكل ما لديها فأنا مستعد لاحتمال  
قضائي ولتكن مشيئة الله.

obeikandi.com

الجرْحُ إِذَا نَضَحَ

قررت أن أرسل مجموعة من القصص القصيرة إلى عدد من الجرائد ليس منها جريدة سارة.. كنت أشعر أنني أعاقها بإرسال كتاباتي إلى غيرها.. لم تكن العلاقة قائمة بيني وبين جريدتها ولكن كانت علاقة بيننا.. والجريدة والقصص مجرد وسيط.. فلما تأخر اتصالها الذي انتظرته شهرًا مرت بخطئتي بطيئة تطحن بقايا صبري بقسوة.. قررت أن يكون لي رد.. وخير رد كان إرسال كتاباتي إلى الآخرين.. وبالفعل وافقت إحدى الجرائد أن تنشر لي ثلاث قصص تبعًا. وقد حققت الجريدة الأخيرة مبيعات عالية بفضل قصصي.. وطلب مني رئيس التحرير أن ينشر لي بعد ذلك أربع قصص شهريًا بواقع قصة كل أسبوع.. وافقت على عرضه الذي كان مشفوعًا بمقابل مادي مجزٍ.

وبعد نشر القصص الثلاث الأولى وفي صباح يوم السبت جاءني اتصال هاتفي.. وكان على الجانب الآخر صوتها.. أخيرًا جاء صوتها:

أهلا عاصم.. كيف حالك؟

سما زلت أتنفس.

فضحكت:

ولماذا تتنفس بعيدًا عنا؟ هل جو جريدتنا لم يعجبك؟

أنتم من حجب عن صدري الهواء يا سارة!

لماذا تقول ذلك؟ فقد نشرنا لك.. وحازت قصصك نجاحًا كبيرًا  
ظننت أنه كفيلا بأن يستمر العمل بيننا.. لماذا لم تبعث لنا  
بمزيد من قصصك أو تتصل لتنظم الأمر سويًا؟

ولكن ما لم تخيبي ذاكرتي أظن أنك طلبت هاتفي.. وكان من  
المفترض أن تتصلوا بي إذا كان يعينكم أمري.

أوه سيد عاصم أنت حساس جدًا! أنت تعرف حجم المشاغل في  
الجريدة وكثرة المادة التي تُنشر.. لكن هذا لا يعني أننا أسقطناك  
من حسابنا.. كانت مسألة وقت فقط.. وقد حزنت أنك اخترت  
النشر في جريدة أخرى على الرغم من أنني استمتعت شخصيًا  
بقراءة قصصك بها. وقد جعلتني أزيد مبيعات جريدة منافسة  
وأنا أنصح أصدقائي بشرائها لمتابعة مجموعتك.. لو يعلم مدير  
التحرير لفصلي بتهمة الخيانة العظمى.

ثم ضحكت:

سرعنا نتخذ خطوات عملية.. متى تستطيع أن تحضر للجريدة  
لننسى سويًا؟ ما رأيك لو حضرت غدًا في الرابعة عصرًا.. هل  
يناسبك؟

قلت:

يناسبني.. سأحضر إن شاء الله.

لا تنسَ أن تُحضر معك بعض أعمالك.

انتهت المكالمة وقد شعرت أنني نجحت في إثارة غيبتها ولو من جريدة.. فإن المرأة كائن موجود للغيرة.. فهي تغار حتى على من لا يمثل لها شيئاً.. فبمجرد أن تمر يوماً بطريقها يزعجها أن تسلك طريقاً آخر.. يجب أن تزيلك هي بإرادتها لا أن تزول بإرادتك أنت أو لأن آخر دعاك إليه.. وقد وعيت هذا الدرس جيداً وقررت أنه إذا كان لا بد من انتهاء قصتي معها فلن يكون هذا بقرار منها.. لن أسمح لها بأن تهزم كل مشاريعي.

غلبني شعور بالتحدي أكثر من شعور شوقي إليها.. وكأنني في ماراثون أو أقارعها على رقعة شطرنج لا بد أن أنتصر فيها أو فليمت الملك مختنقاً. ستتغير قواعد اللعبة بيننا يا سارة! فإن امرأة تغار على جريدتها تمكن إغارتها على قلبها. لن يكون لقائي بك هذه المرة في اتجاه أحادي بل ستكون اتجاهات متعاكسة. لم تعودى وحدك تمسكين الأوراق كلها.. سأشاركك في تحديد مصير قلبي! يجب أن تفتحي الباب وتنتظري حضوري.. لن أطرق باباً تجهلين مَنْ خلفه فقد انتهى وقت الأبواب المغلقة! سأحملك على الاعتراف بوجودي أو لن يكون لي وجود على خارطتك.. لن أكون رجلاً يعيش على هامش وجودك.. كيف لك أن ترتضي لي هذا الوضع المبهين لحب بقدر حبي؟ حتى لو لم يكن لك به علم.. فتلك قضيتك! يقولون إن المرأة تستطيع أن تعرف كل من أحبوها حتى لو كانوا في آخر العالم.. فلماذا لم تعرفيني وأنا على بُعد لقاء منك؟

مرت ليلتي وأنا أحمل ثقتي بنفسي.. لكن ما إن وصلت إلى الجريدة وتنفست الهواء الذي يمر بصدرها ومشيت على الأرض ذاتها التي تمر بها كل يوم.. حتى شعرت أن كل قراراتي يتم محوها قرارًا تلو الآخر! أي امرأة تلك التي تسحقني عن بُعد وتشتت كل حشودي دون أن تطلق نحوي رصاصة واحدة!

وصلت مكتبها في تمام الرابعة.. فأخبرتني سكرتيرتها أنها بانتظاري.. وما إن وصلت إليها حتى قابلتني بابتسامة عتاب:

أهلاً بكاتبنا الذي يريد أن يهرب منّا.

صديقي لا أجد مهربيًا منك إلا إليك.. بعض اللقاءات لا نحصل عليها إلا بالهروب منها.. وكثير من الأمنيات لا تتحقق إلا بإسقاطها من حساباتنا.

وهل أسقطتنا من حساباتك سيد عاصم؟

أسقطتكم لأحصل عليكم.. أقصد على جريدتك.

ابتسمت قائلة:

أخاف أنا من الرجال الذين يجعلون القلم مهنتهم! مريكون دائماً يتحدثون بكلمات لها ألف معنى.

هذا جيد لأنه سيمنحك حق تحديد المعاني.

أخاف أن أفهم المعنى الذي لم تقصده.

أختاري المعنى الذي يناسبك.. وسأجعل منه اختياري.. فأنا  
أجيد ممارسة كل المعاني.

حسنًا! سأعتبر أنك تغازلني وتغريبي بمساحات مفتوحة.

معك لا أستطيع ترسيم حدود ثابتة.. ففي البحر لا توجد  
أسوار.. دعي الموج يحدد لنا لقاءً خارج جريدتك.. هل يزعجك  
أن أدعوك لعشاء نناقش فيه أعمالي؟

أوافق إذا كنت ستعتبره عشاء عمل.

هو كذلك.. فأنت مشروع عمل معطل منذ ثلاث سنوات.

لكن أنا لم أعرفك إلا منذ بضعة أشهر!

لكني أعرفك منذ ثلاث سنوات.

هكذا يدعوني للغرور أن يهتم بي مبدعٌ مثلك.. هل تعجبك  
كتاباتي أم ردودي علي القراء؟

قلت:

بل أنت من تعجيبيني.. وكل شيء منك يحمل مكانتك في نفسي.

هربت بعينها في سقف الغرفة وأخذت تعيد ترتيب أوراق على مكتبها لم تكن تحتاج إلى ترتيب.. وسحبت خصلة من شعرها عبثت بها بشيء من التوتر ثم رفعت عينها يعلوها شيء كثير من التردد:

في أي مكان ستصحبني إذا؟

أي مكان سيجمعنا سيكون المكان الأروع ولا شك.. دعينا نحدد هذا لاحقًا.. المهم أننا اتفقنا على لقاء.

حسنًا اتصل بي غدًا لنحدد موعدًا.. هذا رقم هاتف المنزل.. أوجد به عادة بعد الحادية عشرة ليلاً.

انتهى اللقاء بيننا وأنا محمل بوعده ورقم هاتف.. يبدو أن أقداري بدأت تبتسم أخيرًا.. حان لك أن تخلعي قيد الدهشة من يدي لتمنحيني بدلاً منه قفاز الرجاء.. فقد أجهض الانتظار أجنة الأمل.. امنحيني حبًا جديدًا له سحر عينيك ودفء شفطيك وجنون قلبي.. مسؤولة أنت عن كل آلامي! قومي بدور الطبيب نيابة عني وقومي بترميم جرحي بك.

رجعت سعيدًا وأنا أكثر ثقة بقضائي.. وفي الثانية عشرة قررت أن أتصل.. على الرغم من أن موعد اتصالي كان غدًا.. لكن لم يعد الوقت مناسبًا للانتظار أو احترام المواعيد المحددة سلفًا.. فاتصلت بها وحلَّ صوتها بكل كياني.. قلت:

سمعك عاصم.

قالت:

خشيت أن تفي بوعدك وتنتظر حتى غد!

خلف المواعيد أحياناً يمثل قمة الوفاء.. احتجت أن أسمع صوتك فتأمرت على ساعات الغد لأمنح اليوم حقه في الوجود.

هل تعرف أن لصوتك في الهاتف نكهة مختلفة؟

وما الفارق يا سارة؟

لأن عينيك مزعجتان جداً تطاردان من تنظران إليه فيغفل عن نبرتك.

وهل طاردتك عيناى؟

ردت بثقة:

أنا لم أسلبك شيئاً لتطاردني بعينيك.

جمل سلبتني هدوئي لثلاث سنوات وأنا أتردد على ما يوجد به قلمك! كنت أراك في مرآة بحجم جريدة وأطالع وجهك في مدونتك.. خواطرك مذهلة يا سارة!

إن كان هذا رأيك فعلاً فأنا سعيدة أن يشيد بقلمي أديب مثلك.

ما رأيك لو التقيتك الليلة بدلاً من غدٍ؟

لكن أليس الوقت متأخراً يا عزيزي؟

هو متأخرٌ جداً بالنسبة لطول انتظاري له.. أين تسكنين؟

-الزمالك.

حسناً.. ما أقرب مطعم لك؟

مطعم "الزهرة البرية".

حسناً سأحضر إليك بعد ساعة من الآن.

أغلقت الهاتف ليعود الصمت من حولي.. لكنه صمت ممتلئ  
بضجيج من المشاعر المتلاحقة.. وأصوات أبواق الشوق لا تكف عن  
إطلاق صيحات السعادة!

"الزهرة البرية".. هناك سيكون لقاءنا.. ما أروع هذا الاسم!  
يشبهك جداً يا سارة.. فأنتِ زهرتي التي نبتت دون أن أعرسها بيدي  
وسقتها أمطار القضاء ليأسرني عبقك.. شبيهة أنت ككل الكائنات البرية..  
مبعثر أنا في وجودك وغيابك.

ارتديت ملابسي وأخذت سيارتي في تمام الواحدة.. كانت تجلس  
على طاولة في زاوية.. جسدها النحيل كشمعة تشتعل وتشتعلني..

وخصلاتها تغطي عنقها الطويل كبرج لبنان القديم حين ينزل عليه الليل الشرقي حاملاً أسرار العشق العربي.. جسدٌ قديس لكنه صارخ بجنون الشهوة السرية والعطر السري. تقدمت إليها مصافحاً يدها بيد دافئة تخبيء لهفتي ولوعتي وكل عذاباتي بها.. بعد دقائق حضر النادل.. سألتها:

أي نوع تفضلين من الأطعمة؟

مسائل على ذوقك.

كدت أقول فلتأكليني أنا إذًا! فأنا طعام ينضج لأجلك منذ سنوات ثلاث! لكن وجود النادل يزعج حميميتي معها.. فطلبت "سلطة فواكه".. راقبتها وهي تأكل.. كانت كفراشة تقتات من فم الزهور كأنها تخشى أن تؤلم الطعام بين شفثتها.

قل لي ماذا تنتوي أن تفعل.. فأنا معي تفويض من رئيس التحرير لأتفق معك على عقد عمل ننشر لك كل ما تكتب سواء قصص أو مقالات؟

أوافق شريطة أن يجمعني عشاء بك عند كل موضوع تنشرونه.

إذًا ستنفق كل أجرك من الكتابة على المطاعم.

مستعد لأن أدفع فاتورة لقاءك من دمي.

فاعتدلت وتكلمت بصوت خفيض:

أنت جريء جدًا يا عاصم.. تقفز سريعًا على الأسوار كلها..  
تمهل.. أنت لا تعرف عني شيئًا ولا عن حياتي! أنت لا تعرف كم  
عمري.. ولا تعرف إذا كنت متزوجة أم لا.. ولا تصل معلوماتك  
لأكثر من حدود قلمي.. فلماذا تحاصرني بكل هذا الشعور؟  
صدقني أنا معجبة بك جدًا ولا أريد أن أسبب لك جرحًا. أنا  
أشعر بك من أول لقاء بيننا.. ومنذ أن صافحتني وضغطت على  
يدي سرت في جسدي رسالة منك أخبرتي أنك جئت لأجلي وليس  
لأجل مجموعتك القصصية.. لا أنصحك بهذا.. فأنا امرأة خارج  
نطاق الحب.. أنا قصة مطبوعة لا يمكنك أكثر من قراءتها  
وإضافة بعض الهوامش عليها.. أما القصة ذاتها فقد تمت  
وانتهت.

تتحدثين عن قصتك.. فماذا عن قصتي أنا؟ أنا لا يعنيني ما  
كتب الآخرون ولا أهتم لنهاية محددة سلفًا! دعينا تحت السماء  
نسر بغير جدران تحبس حق الحلم ولا أسوار تحتكر مساحة  
الشعور!

ما حكايتك يا عاصم؟

أنتِ حكايتي! سارة.. سأكون معك أكثر من جريء.. هل تعرفين  
أنني لم أهتم يومًا بنشر أعمالي.. ولم أرسل قصصي لجريدتك  
بل أرسلتها لك أنت.. وكنت أقبل كل صفحة لتحمل لك أنفاسي  
وتودعها على خد أناملك؟ مجنون أنا بك منذ عرفتك.. منذ

قرأت سطورك الأولى وسرى قلمك بدمي يغزو كل خلايا  
وجودي.. أنت قضاء مفروض عليّ ولم أقم باختياره.. قد يكون  
كلامي هذياناً بالنسبة لك.. لكن من له حق محاسبة المجنون  
على جنونه؟ ومن يمنع العصفور من حق الطيران تحت المطر؟  
لا أحد يستطيع مطالبته بأن يلتزم عشه! قد طار بي حبك وأعلم  
أنه سيهلكني.. لكن هذا مصيري وحدي فدعيني أمت على شفا  
جنوني بك! أنا أحبك! نعم أحبك.

ثم نهضت من كرسي كما ينهض الإعصار بعدما ألقى بكل حمولة  
وهي ذاهلة.. تسبح عيناها في ملامحي كأنما تستدعي كل ذكرياتها على  
وجهي.. ترتعش شفتاها المكتنزتان كحبتي كرز.. تبعثرت كلماتها في عباءة  
من الصمت المضطرب.. كقأها كمالكين صغيرين على سطح الطاولة..  
كأنما أصابعها خمسة أجنحة دقيقة كادت تطير من ضربة المفاجأة..  
تمنيت لو قبّلت أصابعها.. لكن بأيها سأبدأ: بسبابتها التي يحاصرها خاتم  
دقيق مثلها أم بخصرها المشاغب؟ رفعت رأسها ترقب وقوفي أمامها  
كحقيقة تحاصر وجودها.. عيناها تقولان اجلس لا ترحل! ورعشتها  
تقول دعني قبل أن أتلاشى أمامك شظايا امرأة شرقت بحقيقة حب لم  
تتوقعه.. صافحتها فشعرت بصهيل الدماء في عروقها كأنه يضحج.. يريد  
أن يضرب سطح الجلد ليختبئ بداخلي.. وقبل أن تتكلم قلت لها:

لا داعي لأن تردني من فضلك! دعيني أحفظ قليلاً بروعة  
اعترافي الأول أمام عينيك! كم انتظرت هذا اليوم.. فلا تحرقي

أغصاناً طال انتظارها تحت جنح الشتاء.. دعها تثمر أخيراً ولو  
ليللة واحدة! يمكننا أن نغادر الآن.

انتهى اللقاء وقد أفرغت حملاً ثقيلاً! طالما حلمت بأن ألقى لها  
أمانتها التي احتبسها في صدري.. حبي من ححك وحدك يا سارة.. فلماذا  
تعطين عليّ أن أرد لك ما هو ملكك وحدك؟ لماذا تجادليني في قدر كتبت  
أنّ كل سطورها؟ من يطلب من الذبيح ألا يصرخ من الألم حين يسافر  
السكين في شرايينه؟

خلوت بنفسي في غرفتي.. بل خلوت بك بعد أن امتلكت زمام  
المبادرة ونجحت هجمتي الأولى.. شعرت بسريان كلماتي إليك وسعدت  
بأنني لم أعد محملاً بشظايا ارتطامي بك. ما أبأس من محب محروم من  
البوح بحبه.. حين نحبس مشاعرنا ونسجن حبنا نصير أكياساً ممتلئة  
بالأنين.. براكين تغطيها عباءة الصخور.. زلزلة صامتة تهدم راحتنا  
وتسحق هدوءنا.. كل حبيب لا يمتلك حق الاعتراف أمام المحبوب يفقد  
حبه ويصير خطيئة تعذب ضمائرنا وجرحاً نغلق عليه من دون علاج.. لا  
يطفى اشتعال النار بذواتنا إلا مصارحة الحبيب.. وها أنا ألقيت إليك  
بأول دفعة من بركانك الذي زرعته بداخلي يا سارة.. فهل تحتملين حرارته  
ولو لليللة واحدة؟ فأنا محترق بك منذ سنين! حان دورك لتشاركييني فيما  
زرعت يمينك ولتنظري أي نوع من الحصاد سيثمر.. هل سيكون  
الحصاد المر أم الحصاد السعيد؟! شاركييني الليلة حلمي يا ملائكة  
الليل.. أطلقوا مصابيح الأمل لتنير مسائي.. يا أبالسة المساء ارحلوا

الليلة عن غرفتي ولا تزعجوا حلمي الجميل.. ولتشتعل قناديل السماء بتوهج أكبر.. ولتنطلق الألعاب النارية من شهب النجوم لتعلن عن فرحتي! ارقص أيها النسيم على وجبي فإنني سأمنحك الليلة حق النوافذ المشرعة ولن تحول بيبي وبينك سدود.. اقتربي أيها السعادة على خطى الأمل الجميل.. قف أيها القدر بجاني أرجوك ولا تُجل فرحتنا لمأتم ولا تقلب زغاريد الأمانى إلى نواح الخيبة! شاركني أيها الكون ليلتي وليأت الصباح بما شاء.

أما أنتِ يا سارة فاسهري الليلة لأجلي.. كابدي لوعة القلق ولتساورك الظنون من هذا الغريب الذي يعترف لك بحب بحجم السماء ولم تقض معه إلا لقاءات ثلاثة بمقدار سطورك الثلاثة الأولى.. كل سطر بلقاء وكل لقاء بحياة! انشغلي بأمرى.. فكم ليلة قضيتها مشغولاً بك.. فكري من أكون.. وماذا أحمل لأجلك في حقيبة أسراري.. ثم امنحيني حباً بقدر عشقي.. ازرعني خرائب حياتي ببساتين آمالٍ جديدة.. أعيدني بناء ما هدم شوقي لك.. امنحيني نفسك امرأة على مقاس رجل له ألف طريقة في صنع الحياة.. أقبل أيها الليل علينا ودثرنا بعباءة الظلام الوديع.. أخف سر حبنا عن عيونهم حتى لا يجتثوا براعم الرجاء قبل أن تزه أوراق السعادة.

ونمت كأجمل ليلة مرت بحياتي.. لم تمر الأحلام بخاطري لأنني أخيراً عايشة حلمي.. وانطلقت خيول الصباح حاملة أشعة الشمس لوجهي فأيقظتني بدلال عاشقة.. نهضت من فراشي كعاشق قضى ليلته

الأولى مع حبيبته.. ورأيت أمي سعيدة مبتسمة فابتهجت لترادف حالنا..  
قلت لها:

ما يضحكك أمي الحبيبة؟

اتصل بي أخوك أحمد يخبرني أنه سيحضر من الخليج غدًا.

حقًا يا أمي؟ هل أنت واثقة أنه أحمد؟

نعم يا عاصم! وهل سأغفل عن صوته؟ شوقي لرؤيته يقتلني..  
كنت أخاف أن أموت قبل أن أراه!

هل سرت عدوى الشوق في كل البيت وصرنا عائلة مرهونة بحبل  
الانتظار؟!

سأذهب لاستقباله.. فأرسلني للخادمة لتنظف البيت جيدًا حتى  
يليق باستقباله بعد سنوات من الغربة.

وهل تراني مهملة في البيت؟

فاعتذرت إليها:

صفوك يا أمي ولكن أعلم أنك متعبة وأردت راحتك فقط.

بل أنا من سيجهز له كل شيء! الحمد لله يا رب.. الشكر لله أن  
رد لي ابني.

قديمًا كانوا يقولون إن أحب أبناء الأم لقلبيها هو الصغير حتى يكبر والمرضى حتى يشفى والغائب حتى يعود.. فهنيئًا لك يا أحمد.. فقد استأثرت بنصيب الأسد من قلب أمك. دائمًا ما كنت أستشعر الغيرة من أحمد الذي يستأثر بحب أمي أكثر مني أنا وأختي أحلام.. والدي أيضًا كان متيمًا به.. هل لأنه الابن الأكبر أم لأن الزهرة الأولى والشجرة الأولى هي الأحب دائمًا لقلب من غرسها؟ لا بأس.. يكفي أن أكون ببستان ترعاه يد أمي حتى لو كنت زهرة من الدرجة الثانية!

توقعت أن تتصل بي سارة في هذا اليوم.. لكن خاب ظني.. يبدو أنها ستتقن معي لعبة الدلال! وكان في قدوم أحمد بعد سنوات من انقطاع أخباره منذ انتقل من السعودية للعراق فرصة لإلهائي عن سارة.. ولأمارس معها بدوري لعبة تكبير الرجال.

ذهبت للمطار لاستقبال أخي.. ليس من رابطة أقوى من رابطة الحب بين أخوين.. أحمد كان ظهرًا قويًا يحميني كما كان "فيكتور" يحمي أخاه "باريس" في أسطورة طروادة.. هل سارة هي "هيلانة" التي ستحطم مدينتي المحصنة؟!

أشتاقك جدًّا يا أحمد.. تذكرت عندما كنت أقلده دائمًا في كل ما يفعل.. فكثيرًا ما كنت أرتدي ملبسه.. وأجالس أصحابه عندما يأتون لزيارته.. وأنعمد أن أقيم معهم صداقة.. كان ينهني على ذلك أحيانًا.. وكثيرًا ما كان يترك لي هذه المساحة.. كنت أتسلل لحجرته لأقتني أحد كتبه وأقرأها سرًّا حتى أشاركه عقله كما أشاركه ملبسه.. فقد كان

أحمد أكبر مني بخمس سنوات فقط.. وعندما يمازح أحد أصدقائه كنت أنتبه لكلامه لأحفظ ما يقول وأبحث عن أي مناسبة لأردد كلماته مرة أخرى.. ولكن عندما كبرنا اتخذت أنا تياراً آخر.. فقد أصبحت أكثر تحرراً منه.. أحمد يعشق الأسرة ويقضي معظم وقته بالبيت على عكسي تمامًا.. وأصبح هو نادرًا ما يقرأ شيئاً.. بينما أصبحت القراءة والكتابة أقدس طقوسي اليومية.. كم كان يرشد حماقاتي إلى طريق الصواب في صغرنا.. ويخفي أسراري السيئة عن والدي.. والدي الحبيب.. أين أنت الآن؟ فقد أصبح ابنك رجلين أحدهما اكتوى بلظى الغربية والآخر تشويه نار العشق الغريب.. ليتك كنت هنا فتمسح عن وجه ابنك ما أهمهما.

أبي كان رجلاً شديد التدين.. يحفظ القرآن ويؤم الناس في الصلاة.. صوته ندي يغسل القلوب من قسوتها.. والأرواح من أدرانها.. كم أشتاق ليدك الحانية يا أبي.. تراني هل كنت سأخبرك بحب سارة.. أم كنت سأخشى أن يدفعك إيمانك القوي لمطالبتي بتركها لأنها فتاة غير ملتزمة بقواعد الدين؟ عفواً يا أبي.. ما كنت سأستطيع أن أطيعك.. فكثيراً ما نهرب من الإيمان حين نشعر أنه سيقف حائلاً بيننا وبين جنوننا غير المشروع! كنت ستقبل ولا شك بعلياء؛ لأنها ترندي الحجاب والملابس المحتشمة.. لكن قلبي سافر إلى سارة المتحررة السافرة.. عفوك يا أبت في قبرك فليس الأمر بيدي.

أخيراً وصلت الطائرة.. وأنا أبحث في كل الوجوه عن وجه أعرفه ويعرفني.. طار قلبي عندما استقرت عينا على وجه أحمد أخيراً بعد

أعوام طويلة من الفراق واللهافة والحيرة لا نعرف فيها هل هو حي أم حواه قبر في بلاد غريبة! هرعت إليه أعانقه بشوقين: شوقي له وشوق حملته أمانة من أمي مختوم بخاتم قلبها الطاهر المعذب.. احتضنتي أحمد.. أحاط بيديه من حولي.. ضمني بكل شوقه وحرمانه من وطنه وأهله.. وبكى في صدري طويلاً كطفل تاه في غابة الظلام وأخيراً عاد لأهله.. ابك يا أخي على صدر أخيك.. تراه بكاء شوق هو أم بكاء عناء وعذاب؟ أي مكروه أصابك؟ وبأي سهم قذفتك يد الغربة القاسية؟ هذا صدر أخيك فانهل من دماء الوطن ومارس رقصة البكاء.. ما أعجب أمرك يا مصر.. مهما تحرقنا قسوتك لا نملك إلا أن نبكي بين يديك! أنت الأم الثكلى بأبنائها.. مجروحة بجرحهم.. دامعة عيناك لعذاباتهم.. فلماذا تقذفين بهم بعيداً عنك؟ هل ضاق ترابك عليهم؟ هل نضب نيلك عن سقياهم؟ لماذا هذه القسوة يا أمنا الرحيمة؟ ما الذي حدث بيننا حتى صرنا نهرب بعيداً عنك إلى أوطان غريبة نتجرع فيها كأس العذاب مترعة بالذل بعيداً عن دفنك؟ أي كارثة تلك التي تجعل أبنائك يفرون إلى الجحيم بعيداً عنك؟ من خان الآخر: أنت أم أبناؤك؟ من أين جاءت الضربات القاسية: منك أم من هؤلاء الذين يجلسون أحلامك في صدورنا ويجلدون أمانينا على خشبتك؟ أجنبية أنت أم مجني عليك؟ ابك يا أحمد واصرخ في صدر الوطن المكلوم.. ابك وطننا صار صغيراً بعدما كان عملاقاً كبيراً.. ابك أمة صارت ضعيفة بعد قوة وذليلة بعد عزة.. ابك فمن البكاء تأتي العزائم ومن الألم يولد الأمل.. ابك في وطنك خبيراً من أن تبكي عليه بين يد الغرباء!

عدنا للبيت بين زغاريد أمي وتهنئة الجيران الذين تعودوا أن يشاركونا أطباق الفرحة والحزن.. متقلبون نحن في وطننا بطريقة جنونية.. فجارك الذي يشمت بكارتتك هو نفسه من يبكي لجرحك بحزن صادق.. والذي يغار من فرحتك هو من يزغرد لهنائك.. أهو النفاق.. أم أننا صرنا ننتقم من بعضنا عندما عجزنا عن توجيه الغضب لمن يستحق.. أم أننا جبُّنا عن مواجهة من يسحقون أمانينا فصار الظلم عدوى تنتقل من رأس الهرم إلى قاعدته؟

ضمت أمي أحمد واختلطت دموع الوالدة بولدها.. كل منهما يمسح رأس صاحبه وخديه.. تتأمل وجهه وتزرع حنائها بلامحه ثم تعيده بين جناحيها.. ضمي آلامه يا أمي.. لبيتك تضمين أحزاني معه فقد صار ابناك معذيين: واحد بغربة الوطن والآخر بغربة القلب!

جاء الجيران مهئين بعودة الغائب.. وازدحم البيت بالضجيج والأصوات الصاخبة وأنا غارق في صمتي الممتلئ بسارة.. أراقب الوجوه لأقرأ ما تخبئه.. منهم من جاء فرحًا بحق ومن جاء طامعًا في هدية من بلاد النفط.. ومنهم من جاء ليستمتع إلى قصص الغربة وكأننا لسنا جميعًا غرباء بك يا مصر! ما أكذبنا حين نشفق على من يرتحلون عن الوطن.. أيهما أشد قسوة: أن تكون غريبًا بين الغرباء أم غريبًا في وطنك وعقر دارك؟ هل نعيش في حضان الوطن حقًا؟! فلماذا إذاً أصبحنا نأكل طعام الغرب الذي نلعن ونغني على موسيقاه ونرطن بلسانه؟ تذكرت ذلك الصديق الذي كان يحادثني مفاخرًا بأن ابنه تربي في مدرسة من المدارس

الأجنبية المنتشرة بمصر وهو يبتسم قائلاً إنه في الثانوية ويتكلم العربية بصعوبة ولا يتقن أن يكتب بلغة "الضاد" لأنه لا يتحدث إلا الفرنسية والإنجليزية! صار فخرنا بأن لساننا عاجز عن النطق بلغتنا وأن أبناءنا لا يتحدثون إلا لغة عدونا الذي أذقنا ذل الحضارة! هل يمكن أن تنهض أمة منبسطة تحت عدوها مهورة به؟! إن رقي الأمم لا يأتي بتقليد الآخر بل بمنافسته وبالثقة بحق الوطن وحرية وثقافته.. كم يذهلي اليابانيون الذين على الرغم من تقدمهم الشاهق لا يزالون متمسكين بأزيائهم.. برقصهم.. بعصيمهم.. بشكل بيوتهم.. وحدنا صرنا مسخاً مشوهاً لا إلى الغرب ننتمي ولا إلى الشرق ننتمي.. نتحدث لغتهم ونستقدم حياتهم مع احتفاظنا بقدرتنا على الظلم وعبقريتنا في الاستسلام أمام الطغاة.. فلا نحن حصلنا على حريتهم وتقدمهم ولا نحن احتفظنا بثقافتنا!

تناولنا الغداء الذي حرصت أمي أن يكون عامراً بكل أصناف الطعام.. وكأن الغربية تصيبنا بالجوع! عفواً يا أمي نحن جائعون للحرية وليس للطعام.. فهل يمكنك أن تقدمي لنا طبقاً من الكرامة.. ومائدة عامرة بأصناف الحقوق المستلبة وليس اللحوم المشوية؟

قام أحمد بعدها ليستريح من سفره.. وأخذت أمي تحدثني عن أحمد وطفولته وكأني غريب عنه.. لكنني لم أشأ أن أقطع نشوتها بالحديث عنه.. فأنا أعرف كم يكون توق المحب للتحدث عن حبيبته.. فاستمعت إلى قصص سمعتها ألف مرة من قبل.. تحدثني عن يوم ولادته بقولها: "كان وش رزق من يوم ما اتولد.. وفي الأسبوع اللي فطمته ربنا

كرمنا بشقة ملك بدل الشقة الإيجار.. ولما تعب بالحصبة واتحجرت بيه في المستشفى كانت الممرضات تيجي تتفرج عليه.. كان أجمل طفل في المستشفى.. وفي دراسته كان متفوق ودايما يطلع الأول!" وكأني لا أعرف أحمد وأعلم أنه أخفق في تحقيق حلم والدي بأن يلتحق بكلية الطب ولم يذهب به مجموعته لأكثر من كلية التجارة! وأنا أجازيها في الكلام مؤمناً على تمييز أخي ونبوغه من دون أن أذكرها بأني أنا من حققت حلمهما بدخول كلية الطب على الرغم من أنني كنت أتمنى الالتحاق بكلية الإعلام وتنازلت عن حلمي من أجل حلمهما.. فرغت أُمي من حديثها عن أحمد.. وجاءني اتصال من محمد اليماني.. فسارعت إلى المقهى حتى أتخلص من ضوضاء المنزل.

عندما وصلت إلى المقهى وجدت الحاج "ناصر" .. كان رجلاً على مشارف السبعين من عمره.. له هيئة منمقة ووسامة واضحة.. يذكرني بعهد الباشوات بلحيته البيضاء المهذبة وشعره الناعم المرسل وصوته الخفيض وأخلاقه الدمثة.. لكنه كان ناصرياً متعصباً.. إذا ذكرت أمامه ناصر بسوء يحمر وجهه غضباً.. وينبري للدفاع عنه مؤكداً أن لكل ثورة مساوئها.. فيحدثني كيف كانت حقبة الخمسينيات ثرية بأنواع الآداب والفنون.. وعندما أعترض كلامه وأذكره بأن الآداب بأنواعها انتهت بمجرد قيام الثورة.. بدليل أن أسماء كبيرة مثل طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وتوفيق الحكيم ومحمود شاعر وغيرهم كانوا جميعاً أبناء العهد الملكي.. وبعدما قامت الثورة لم يتكرر هذا الجيل إلى عهدنا هذا.. يقوم بتغيير مسار الحديث ليكلمني عن دور الثورة في نهضة التعليم والإصلاح!

وأنا ألتمس له العذر.. فليس أصعب من محاولة تغيير قناعات رجل على مشارف السبعين؛ لأنه سيكون قاسياً جداً على نفسه أن يكتشف أنه قضى عمره بكامله في وهم كبير.

عندما وصل محمد استأذن الحاج ناصف في الانصراف.. فقد كان ذوقه يمنحه القدرة على معرفة متى يكون مرغوباً في جلوسه.. ومتى يجب عليه أن يترك صديقين يبوحان بأسرارهما من دون تدخل من أحد.

محمد أصبح متحفظاً معي.. أشعر بتغييره في الفترة الأخيرة.. بعدما جلسنا قليلاً سألتني بشكل مباشر:

لماذا تركت العمل بالمشفى؟

من أخبرك بهذا؟

علياء اتصلت بي وأخبرتني أنها علمت بحصولك على إجازة مفتوحة.

هذا أفضل لي ولها.. فلا داعي أن أظل بمكان يجمعني بها.. البعد يصيب اللفة بالصدأ.. وأنا أرى أنه من الأفضل أن تفقد علاقتنا بريقها الذي يشعل حبه من جديد وعذابي أيضاً.. ليستريح كل منا بعيداً عن صاحبه أفضل.

لكن هل تعتقد أن علياء ستنسأك بسهولة هكذا بمجرد أنها لا تراك؟

لا أعتقد أن يتم الأمر بسهولة.. لكني أثق أنه سيتم في النهاية..  
فالإنسان خُلِقَ لينسى.. صدقني هي مسألة وقت ليس إلا.

أتمنى! أقصد حتى لا تظل معذبة بك إلى الأبد.

نظرت في عيني محمد فوجدته مثقلاً بالهموم.. فسألته:

سما بك؟ هل تعاني مشاكل أو يشغلك شيء؟

لا.. أنا فقط مرهق قليلاً.. عاصم.. لماذا كانت تحبك علياء؟

حرفوا لم أفهم ماذا تقصد؟!

أعني ما الشيء الذي كان يجذبها إليك؟

فابتسمتُ:

أعتقد أن علياء هي أفضل من يجيب عن مثل هذا السؤال..  
وعلى أي حال نحن لا نحب لأجل مزايا معينة أو صفات محددة؛  
لأن كل المزايا والعيوب تنتهي بالتعود.. ومع الوقت ينتهي كل  
شيء.. فنحن لا نظل حاملين.. ومن كنا لا نظن أن تستمر الحياة  
من دونه ندرك في نهاية الأمر أننا سنحيا حتى لو فقدنا العالم  
بأسره! صدقني هكذا تسير الأمور دائماً.. فنحن لا نؤمن إلا  
بأنفسنا.. وحيناً للآخرين مرتكز على حيننا لذواتنا في المقام الأول.

همل أنت مؤمن حقًا بما تقول.. أم أنك ترضي ضميرك فحسب  
حتى لا يؤلمك ألمها؟

صديقي أنا آخر رجل في العالم يمكن أن يخدع نفسه.. لأنني  
مؤمن أننا حين نخدع الآخرين نفقد نقاءنا.. أما حين نخدع  
أنفسنا فإننا نفقد وجودنا ذاته.. نصبح أقنعة تحوي الفراغ..  
وإذا نزعناها فلن ترى إلا الخرائب والأوهام.

إذًا فلماذا تزعم أن حبك لسارة حتمي وقييد لا تستطيع نزعها؟  
لماذا لا تنساها بالطريقة ذاتها التي تطالب عليها بأن تنسك  
بها؟!

لا يمكن أن أنسى سارة لأنني أحب نفسي حد الجنون.. ومؤمن  
بذاتي حد التنسك.. وأحبها لأنها تشبهني بدرجة مرهقة في  
اختلافها وجموحها المجنون.. ألم أقل لك إننا فقط نحب  
أنفسنا في صورة من نحب؟!

أنت تفلسف الأمور!!

ليست فلسفة.. بل فقط أعرف ما أريد.. وتلك قضيتي.. فإن  
أكثر الناس غرابة بيننا هم أولئك الذين يعرفون ما يريدون..  
هؤلاء يا صديقي إما أن يحققوا المعجزات وإما أن ينتهي بهم  
الحال في مصحة عقلية!!

أحسب أن نهايتك ستكون من النوع الثاني أيها الحكيم  
المجنون.

نعم يا محمد أنا بالفعل مجنون لكن ما زال خارج الأسوار.. على  
أي حال رجاءً أن تهتم بعلياء.. فأنا أريد أن أطمئن عليها ولن  
أستطيع أن أقوم بهذا الأمر بنفسني.. أنت صديق مشترك بيننا  
وكلانا يثق بك.. فتابع أخبارها من وقت لآخر.

لا تقلق يا عاصم.. أنا بالفعل حريص أن أظل بجوارها على  
الأقل في هذا الوقت وتلك المحنة.

مضى وقت طويل على آخر لقاء جمعني بسارة دون تبادل أي  
اتصالات بيننا.. فقد كنت مصرّاً على أن تكون هي أول من يتكلم.. لا بد  
أن تطرق بابي ولو لمرة واحدة.. فلن أظل أستجدي لقاء أو سماع صوت!  
أصبحت أرسل مقالاتي وقصصي لجريدتها عبر "الإيميل" بعدما أصبح لي  
عمود يومي تحت عنوان "هوامش عاصم يزيد".. وأتلقى الأجر عبر  
البنك.. فلا أنا أذهب إلى الجريدة ولا هي تتصل بي.

كان غالب همي في هذه الفترة أخي أحمد الذي أصبح صامتاً أغلب  
الوقت.. يغلق غرفته عليه بالأيام.. ونادراً ما يغادر المنزل.. أمني قلقة  
عليه.. دائماً تشكو لي: "أحمد لا يريح قلبي غائباً ولا حاضراً.. بعدما  
انقطعت أخباره عني سنوات لا أعرف فيها إذا كان ابني حياً أم ميتاً.. قلبي

يتمزق كل يوم ألف مرة.. وعندما جاء وأصبحت أراه أمامي ما زال يقلقني بصمته.. لماذا يخفي عنا همومه؟ ليته يتكلم معي ليرتاح.. ألسنت أمه؟ راع أخاك يا عاصم واعرف ما به.. حاول أن تخفف عنه فهو لا يقبل مني كلامًا.. قلبي ينفطر عليه.. ماذا حدث لك يا حبيبي؟ ماذا فعلوا بك؟ أين أبوكم ليشاركني همي ويرى ما حدث لأبنائه" .. ثم انهارت باكية وأنا أقف عاجزًا بين أمي وأخي.. أحاول أن أخفف ألمها وأكفكف دموعها وأتعلل بأنه فقط لم يتعود على الحياة في مصر بعد طول غربة.. وإن كنت في داخلي أعلم يقينًا أن شرخًا هزم أخي من داخله.. غير أنني لا أعرف من هذا الذي هدَّ بنيانه وحطم روحه وشوه حلمه وقلبه الصافي!!

أصبحت حريصًا على تناول طعامي معه.. أشاركه غرفته.. أسهر معه كل ليلة على غير رغبته.

قال لي:

لماذا تترك غرفتك وتشاركني المكان؟ إذا كنت تريد هذه الغرفة فخذها وانتقل أنا لغرفتك.

كلا.. بل فقط أشتاق للجلوس معك.. ولن أغانر غرفتك.. أنت رهن الاحتلال حتى تقبل شروط الجلاء.. وأولها: أن تخرج معي نتمشى سويًا.. أريد أن ألقنك درسًا في الشطرنج.. قديمًا كنت تهزمني لكن أعدك أن هذا الزمن قد انتهى ولن أرحمك على رقعة الشطرنج.

فتبسم دون أن تظهر أسنانه:

قد نسيت هذه الأشياء يا عاصم.

اعتدلت في جلستي:

أحمد.. أمك تموت من قلقها عليك.. ارحم ضعفها واخرج معي حتى تطمئن عليك.. منذ انقطعت أخبارك وأمك تعيش خارج الزمان والمكان.. تذكرك كل لحظة.. تموت حزنًا وخوفًا عليك.. لم تعد لها الحياة إلا بعد اتصالك بنا قبل شهر من عودتك.. فلا تُعد إليها أشباح الخوف والحزن.. أعرف أنك شاهدت أهوالاً في العراق ولا أريد أن أضغط عليك في شيء.. وحتى لا أطلبك بالكلام عما حدث لك إلا عندما تريد أنت.. أنا أخوك يا أحمد فدعني أحمل شيئاً من حزنك.. فمشاركة الأحزان تخفف من وطأتها.

غزت الدموع عينيه:

سماذا أقول؟ وماذا أحكي لك يا عاصم؟ وأي مصائبي يمكن أن تحتملها معي؟ حملي ثقيل جداً ولن أحتمل أن أنقل أحزاني إلى أقرب الناس لي.. لا أريد أن أحرق قلوبكم بألمي.. فلم يعد لي غيركم.. فكيف أطيق أن ألقى بمأساتي على قلوبكم؟

إذا لم نشاركك نحن فمن؟ بالله يا أحمد فم واخرج معي.

بعد ضغط طويل استجاب لي.. وخرجنا سوياً لأحد المطاعم..  
تناولنا عشاءً ثم قلت له: ألا تشتاق للنيل؟ تعال لنقف قليلاً عليه  
نستنشق هواء طالما كنت محروماً منه!

اخترت أحد المقاعد بعيداً عن زحام المترددين على ضفة النهر.. لا  
يشاركنا فيه إلا النجوم وحزن النهر القديم.. وفي جوٍ نصف مظلم جلسنا  
صامتين لمدة.. ثم تكلم أحمد بعدما نظر طويلاً إلى النيل:

همل تعرف أن النيل يشبه نهر الفرات؟ الماء الطاهر نفسه..  
والحنين ذاته الذي يربطك به.. دائماً كنت أقف على الفرات في  
ليالٍ يغطيها الموت والدماء.. وأقول له: احمل أشواقِي وسلامي  
إلى النيل.. أليستما أخوين من رحم الماء؟ يقولون: إن النيل  
والفرات نهران ينبعان من الجنة.. لا أعرف كيف هذا.. لكني  
كنت أشعر حقاً أنهما ليسا من جنس الأنهار.. فلهما قداسة  
غريبة وسر لا أفهمه لا هنا ولا هناك!

عندما شعرت أن أحمد بدأ يتحدث عن العراق شجعتني ذلك على  
أن أستكشف أسرارهِ بلطف حتى لا أزعجه بأسئلة مباشرة.. فقلت له:

همل أحببت العراق؟

صمت قليلاً ثم قال:

-العراق؟ العراق هو توأم مصر.. الوجوه الطيبة نفسها.. لم أكن أشعر أي غريب بعيد عن وطني.. كانوا يحتفون بنا لمجرد أننا مصريون.. يقولون إن مصر فقدت مكانتها في نفوس العرب جميعاً عدا الشام والعراق.. مهما هانت في عيون الآخرين وانسحقت مكانتها يبقى الشام والعراق يحملان لها التقدير والحب.. أحسست بهذا حقاً في عيونهم.. أما في الخليج عندما كنت به قبل السفر للعراق فقد تعرضت للسجن ثلاثة أشهر لأنني استهجن نظام "الكفالة"!

قلت لكفيلي ذات يوم: "يا أخي نحن مسلمون وعرب.. لا فرق بيننا.. ولست عبداً لك".. فضحك ساخراً مني وقال: "بل أنت ملك لي ما دمت كفيلك هنا.. ولو أبغى أحط حبل في رقبتك وأجرك".. غلت الدماء في عروقي لما سمعت إهانته فقممت وصدفتته على وجهه.. فما كان منه إلا أن أبلغ شرطة البلد بأنني هارب من الكفالة وطالب بترحيلي.. وجاءت الشرطة واعتقلتي ثلاثة شهور حتى تقدم أحد أصدقائي ودفع مبلغاً كبيراً للكفيل حتى يتنازل عن بلاغه.. أي إهانة وذل حين نذوق الظلم على يد من كنا نقول إنهم أشقاؤنا؟ أبناء أوروبا الغرباء يأتون إلى بلادهم فيفعلون الموبقات ولا يسألهم أحد عن شيء فقط لأنهم يحملون كرامة بلادهم التي جاءوا منها.. فكونك بريطانياً أو فرنسياً أو أمريكياً هذا يعني أنك أنت الدولة نفسها ومن يمسك بسوء فقد مسّ دولتك وأساء لها.. وهذا ممنوع وله عقاب.. لذلك كانت كرامتهم محفوظة وجانهم مهاناً.. ونحن الإخوة في العروبة والإسلام لا ندخل بلادهم إلا بالكفيل.. وإن اعترضت على الظلم عاملوك كالعبد الأبق الهارب!

لم أحتمل الحياة هناك بعدما خرجت من السجن وقررت أن أعود لمصر.. لكن رغبت في قضاء العمرة قبل عودتي.. وهناك في الحرم قابلت عراقياً شعرت بارتياح كبير معه.. كان اسمه "فضل".. وقد كان فعلاً اسماً على مسمى.. بقينا في الحرم سوياً بضعة أيام.. وقصصت عليه ما حدث لي.. فعرض عليّ أن أذهب للعراق للعمل هناك.. قلت: ولكن أنتم تحت الحصار منذ سنوات وأعتقد أن الحال عندكم لن يكون أفضل كثيراً من مصر.. فقال: لا والله يا أخي لا يزال العراق بخير.. فإن شئت دبرت لك عملاً جيداً. حقيقة يا عاصم وبعدما حدثت معي رأيت أنني لم أحقق شيئاً في السعودية وسأعود خالي الوفاض.. فوافقت على عرضه.. وسافرت قبل غزو العراق بتسعة أشهر.. نعم تسعة أشهر فقط كانت حبلتي بالسعادة والنجاح.. أصبحت فيها أحتل مكاناً كبيراً بالمؤسسة التي أعمل بها.. وخلال هذه الشهور التسعة تعرفت على زميلة عراقية اسمها "عائشة".. تلك التي راسلتكم وقتها بأنني أنتوي خطبتها.. تسعة أشهر انتهت بمخاض أليم.. وجاء وقت الوضع.. وباله من وضع ومخاض! فبعد السعادة جاءت طائرات أمريكا وبوارجها والناس لا يدرون هل ستقوم الحرب فعلاً أم أنه فقط تضيق للحصار! فكرت وقتها في العودة لمصر ولكن كانت الطرق كلها مغلقة.. والأبواب كلها موصدة.. ولا سبيل للخروج من العراق ولا الدخول إليه.. وجاء إنذار القوات الغازية برحيل صدام أو بدء الحرب.. أصبح الناس ساعتها على يقين بأن الحرب واقعة لا محالة.. فليس هناك زعيم عربي ينزل عن عرشه إلا قتيلاً أو طريداً.. إما بإرادته وإما بإرادة شعبه.. وهذا مستحيل.. والحق أقول لك يا عاصم

كنت أكره أن يستسلم لهم صدام.. فإذا كان هؤلاء الحكام قد جاءوا إلينا على ظهر دبابات الانقلابات.. فلا أحب أن يرحلوا على ظهر دبابات العدو والغزاة.. وقامت الحرب.. وغرقت بغداد تحت أمطار الجحيم يصبون النار علينا ليل نهار.. حتى سقطت قذيفة على بيت عائشة فقتلت كل أهلها ونجاها الله؛ إذ كانت خارج البيت وقتها.. وشعرت أنه حتى لو أتيت لي فرصة الهروب من جحيم العراق فلن أفعلها لأنني أصبحت كل من بقي لعائشة. عرضت عليها أن نخرج سوياً لسوريا ومنها إلى مصر.. فرفضت بعنف وقالت لن أغادر بلدي لأتركه للغزاة يأكلون من أرضه ويشربون من مائه.. فكبرت في نظري وتصاغرت أمام عزمها المتقد.. قررنا الزواج.. زواج على طبول الحرب وزغاريد القنابل الذكية.. زواج بنكهة الموت.. وفرح بمذاق الدمار والخراب.. ننتقل من محافظة لمحافظة ونتابع أخبار الحرب فرحين بالمقاومة الباسلة في بدنها.. استشعرنا أن الغمة أوشكت أن تنزاح عندما كنا نسمع تقارير "الصحاف" عن ذبح العلوج وتوعده بأن بغداد ستكون مقبرة الغزاة.. الدجل العربي نفسه في كل مكان.. والشعوب كقطيع لا يدري ماذا يدبر له الذئب الراعي!! الطبلية والمزمار ذاتهما اللذان خدعونا بهما في هزيمة 67.. خدعونا هناك وخدعونا هنا.. قديماً إذاعة صوت العرب وحديثاً إذاعة صوت "الصحاف".. خرجت علينا إذاعة صوت العرب: أسقطنا عشرين طائرة لبني صهيون.. وبعد ساعة صارت مئة طائرة.. أحرقنا دباباتهم.. أغرقنا بوارجهم.. ثم استيقظنا على ضياع سيناء وذبح جنودنا.. خدعونا ووضعوا رءوسنا في

رمال الكذب والعهر الإعلامي.. لم يكفهم ظلمهم لنا حتى جعلونا عبيداً وجواري نباع في سوق العدو بلا ثمن.

دخلت أمريكا إلى رحم بغداد وهتكت العرض الطاهر.. وما زال المدجلون يمارسون سحرهم الأسود.. يتحدثون أنها خطة موضوعة وكمين مدبر.. وكثير الكلام عن الأنفاق السرية التي تقبع بها مئات الدبابات وآلاف الجنود جاهزين للانقضاض على العلوج وسحق أمريكا وجيشها.. ومرت الأيام ولم تخرج الدبابات ولا انتفض الجنود.. وعاث رعاة البقر فساداً في بيت الرشيد.. وبكت "ولادة" في خمارها لا تجد من يعيد لها شرفها.. وأخرج مخانيث هوليوود جثة "المتنبي" ليصلبوه على عمود الإعلام العالمي الجديد.. ونام رب البيت الأبيض في قصور بني العباس.. وغاص العراق في لجة الظلام.. كل يوم نسمع عن فصيل مقاوم.. هذا سني وهذا شيوعي.. وهذا من العراق وذاك جاء من أرض الأفغان لينقذه.. كلٌّ يزعم أنه المحرر وأنه دواء الداء وسر الشفاء.. وأمريكا تعلن للعالم عن عالمها الجديد والفوضى الخلاقة.. يزفون للعالم عرس الديمقراطية الوليدة وبيشرون بأن المسيح الجديد ترك حضن مريم المقدسية وجاء من واشنطن حاملاً أكاليل الخلاص.. فافرحي يا بلاد العرب وفرجي قدميك لبشارة السماء أو حتى لبشارة الشيطان.

كنا ننتقل من بلدة لبلدة ومن بيت لبيت.. أهرب بعائشة من الموت الذي يلف جسد العراق في شال أحمر بلون دماء الأطفال والأرامل.. استيقظنا ذات يوم ونحن بـ"الفلوجة" على خبر تفجير مسجد "الإمام"

وانهيار قبته المقدسة.. فأخرج الخراب رأسه وانتفضت شرارة الفتنة الكبرى.. البعض يقول إن الأمريكين هم من فعلوها حتى تنشغل الكتائب المقاتلة من السنة والشيعية بنفسها.. وآخرون يقولون بل إيران هي من فجرت المسجد لتستقطب الشيعة إليها.. وثالث يردد بل تنظيم القاعدة.. وأياً من كان الفاعل فقد بلغ مراده وارتفعت ألسنة اللهب وهبت الرياح لتنتشر النار في العراق كله.. فأصبحنا نسمع عن كتائب الموت.. "جيش المهدي" الذي يقتحم منازل السنة فيذبح النساء والأطفال.. فيبرد تنظيم القاعدة بتفخيخ السيارات وتدمير الحسينيات وتفجير الأسواق.. من يقتل من يا عاصم؟ انتقام أعمى وحرب مقدسات بين أفراد لا يعرفون عن القداسة شيئاً.. أيادٍ تتوضأ بالدماء وقلوب لم يعرف الإيمان لها طريقاً.. كلهم يتحدثون باسم الله دون أن يرفعوا أعينهم للسماء يوماً ليروا كيف أن السماء تلعنهم وتصب على رؤوسهم آيات الدموع من مآقي المظلومين.. فكل الجرائم في أوطاننا تُرتكب باسم الله!

أصبح الجميع وكلاء عن فردوس السماء.. يقدمون صكوك الغفران لمن يؤمن بحقهم في الحكم والسيادة فقط.. ومن كفر بهم فمصيره الموت تحت أنقاض بيت من بيوت الله!!

النساء والأطفال وحدهم من يدفعون الثمن وفاتورة السيادة بين السنة والشيعة.. هل هذا زمن الجهاد العظيم.. جهاد الأسواق وذبح النساء في البيوت؟ في أي زمن قد قذفتنا أرحام الأمهات؟ ليتهن لم يلدننا فقد جئنا إلى هذا العالم في التوقيت السيئ والمكان السيئ والضمائر

الشائبة.. حتى أصبحت أشك في فخري بعروبتى وسعادتي بأني أنتمي إلى تلك البقاع التي يقتل الأخ فيها أخاه على هويته وانتمائه.. الزمن القبيح الذي يستعبد فيه أغنياء بلاد النفط فقراء إخوانهم في مصر والشام والصومال والسودان.. أصبحنا أمة توفّر على عدوها جهده ورصاصة ويديها تذيب نفسها!!

ووسط هذه الأحزان كلها قد تبعث لك يد القضاء بأمل حتى تهول مرة أخرى خلف قاطرة الحياة.. وساعتها تشعر بالطعنة أكثر.. فإن من لا يملك شيئاً لا يخاف على شيء.. وليس من شيء في الوجود يجعلك أحرص على الحياة والنجاة من وجود طفل تتمنى أن تحقق فيه ما أخفقت أنت في تحقيقه.. ولكن لم يكن هذا زمن الأمل ولا وقت الرجاء.. فكان ميلاد طفلي سبباً جديداً للشقاء وقيداً يزيد من وقع القيود.. كنت سعيداً به وشقيماً بمستقبله! كيف سأضمن له النجاة من هذا الجنون؟ فنحن جيل فقد الأمل في مستقبله وأصبح محاسباً على ماضيه أيضاً.. نعيش في لحظة مهمة.. لا تمتلك حق الرجوع ولا تمتلك رفاهية التقدم.. فعليك أن تقف حيث أنت تنتظر ما يقرره لك الآخرون!

أصبح العراق جحيماً في جحيم.. فبين نار المحتل ونار الفتنة نعيش.. ولا ندري من أي البنادق ستستقر الطلقة الأخيرة في صدورنا.. من بنادق العدو أم الشقيق! "الفلوجة" كانت المدينة الأولى التي أشعلت شرارة المقاومة السنية للمحتل.. وأطلقت الرصاصة الأولى على رأس الماريتز.. فجاءت إلينا قوات أمريكا تساندها قوات الجيش والشرطة

العراقية ليسحقوا المقاومة في مهدها.. أصبحت الفلوجة فرناً يحرق كل من بداخله.. فخرجت بعائشة وطفلنا واستمرت رحلة الهروب من ذئب الموت الذي يطاردنا من محافظة لمحافظه ومن مدينة لمدينة.

مرضت عائشة مرضاً شديداً بعدما أقنعتها أخيراً بضرورة الخروج من العراق لأهرب بها وطفلنا الرضيع.. اختلطت الأوراق يا عائشة وأصبح قتل الأمريكي جهاداً وقتل العراقي جهاداً أكبر.. الدم العربي كدم الغازي.. لا نعرف من العدو ومن الرفيق! سألقي ببندقيتي في جوف "الفرات".. فوحده يعرف من الصادق ومن الخائن.. فلتقاتل أنت يا فرات عن أرضك فقد سقطت كل قناعاتنا وعمي البصر فينا والبصيرة.. سأحمي أسرتي وللعراق نهر يحميه!! فلنهرب يا عائشة فهذا زمن الهروب الكبير من أوطان توحشت علينا ومن أشقاء تصيدنا بنادقهم لأننا سنة أو شيعة!

اقتنعت عائشة أخيراً بحجتي.. لكن حجتي لم تكن كافية لإقناع القدر.. فأبى إلا أن نمكث بالعراق.. اشتد المرض على عائشة حتى أقعدها عن الحركة والتنقل.. ولم تكن المشافي آمنة لعلاجها.. فالموت في كل مكان.. لا مستشفى يشفيك ولا مسجد حرمة تحميك.. فمساجد السنة أهداف مشروعة للشريعة ومساجد الشيعة صيد ثمين للسنة!

وفي ليلة خميس أسود كنت أصلي لله كي ينجينا من المحن ويرحمنا من البلاء الذي يلفنا.. استشعرت أن السماء تقول لي: أنتم من خذلتم أنفسكم.. فادفعوا ثمن هوانكم وصمتمكم تحت ريقة عروش

الأصنام! اشتد الظلام من حولي وسمعت أصوات الخيانة وفحيح الأفاعي من خلف الأبواب.. نزلت شياطين الجحيم وغادرت الأبالسة قيودها وجاءوا لسحق آدم من جديد.. سمعت طرقًا عنيفًا على باب البيت.. لم نكن نعرف أحدًا ممن يسكنون بجوارنا.. فقلت: من يطرق الباب؟ فرد الشيطان من خلف بابي: "افتح يا نجس يا ابن القحاب وإلا فجرنا البيت على رءوسكم".

نجس؟! لماذا أنا نجس يا عاصم وأنا لم أترف كبيرة.. ولم أكن شقيفًا.. ولا هتكت شرفًا؟! الصوت عربي والكلمة عربية والجرح عربي أيضًا.. فلماذا يناديني بابن القحاب؟ لماذا تسبني يا شقيق العروبة؟ يا رب ارحم ضعفي واحفظ زوجتي وابني الذي لم يعرف من الدنيا شيئًا!

فتحت الباب فاقتحموا البيت كأسراب النمل وجحافل الجراد يغطيم السواد.. لست أدري أهم كان أشد سوادًا أعطيتهم أم قلوبهم!

سألني أحدهم: هل أنت عراقي؟ فقلت: بل أنا مصري.. لكن زوجتي عراقية.. فصفعني: يا ابن الفراغنة جئتم تأكلون خير العراق يا أنجاس وملأت الأرض بفسادكم.. من أذن لك أن تتزوج من عراقية يا نمرود؟

قلت له: وممن يجب أن أستأذن إذا كانت زوجتي تقبل؟

فضربني بمؤخرة بندقيته في وجهي فسقطت مغشيًا علي.. وعندما أفتت وجدتي مربوطًا بالحبال وبجواري عائشة دامية.. وابني

"يزيد" لا يقوى حتى على البكاء.. أحد الذئاب كان يقف على رؤوسنا.. رفع اللثام عن وجه كالح لا ينبي عن الرحمة.

قلت له: من أنتم؟ وأين نحن؟ ولماذا تحتجزوننا؟

قال: نحن الموت الذي جاء ليقبض أرواحكم.. نحن "جيش المهدي".

لكن نحن لا نتعامل مع المحتل ونريد الخير للعراق.

ونحن نريد أن نظهر العراق منكم يا وهابي يا نجس.

سحرفت القضية وقتها.. نحن هنا لأننا سنة!

ألم أقل لك يا عاصم أصبح كوئك سنياً جريمة أعظم من خيانة الوطن؟ سنذبح لأن أسماءنا "عمر" أو "عثمان" والكارثة أنهم عرفوا أن اسم زوجتي "عائشة" وأن ابني "يزيد".

دخل ثلاثة آخرون يمسكون في أيديهم مثقاباً يسمونه "الدريل".. هل تدري ما هو الدريل يا عاصم؟ إنه مثقاب للحوائط يسحق الصخر والحديد ويثقبه.. لكن لم يكن معهم من أجل الجدران بل من أجلنا نحن.. فقد كانت تلك وسيلتهم المفضلة في التعذيب والقتل الرهيب.. بدءوا بعائشة.. كان اسمها كفيلاً بإشعال الحرائق في نفوسهم المريضة.. جردوها من ملابسها وهي تصرخ تحت أحذيتهم الغليظة يدوسون وجهها وأنا عاجز مقيد.. تصرخ: يا رب يا رب.. وجاء وقت الدريل.. بدءوا بقدمها

يثقبونها بين كل ثقب وآخر موضع إصبعين.. الدماء تنفجر من كل مكان وهي تصرخ: اتقوا الله.. أنا مسلمة عراقية.

فيضحكون: "هل ركبت الجمل لقتال أمير المؤمنين عليّ يا فاجرة"؟!

أي جنون هذا يا أبناء الجحيم؟! يحاكمون زوجتي عن فتنة عمرها ألف عام.. عائشة ربما حتى لا تعرف قصة "الجمل" ولا تدري لماذا قاتلت "عائشة" أم المؤمنين "عليّاً" أمير المؤمنين!!

لكن ستدفع ثمن اسمها باهظاً والثمن هو الدم والحياة.. فهذا زمن القتل على الأسماء!

بعد ساعات من التنكيل والتعذيب والقهر.. قرروا قتلها وهي في الرمق الأخير.. نظرت لي: "سامحني يا أحمد فمن أجلي حدث لك هذا كله".

لا يا عائشة.. لا يا حبيبتي.. لا يا زوجتي.. ليس ذنبك! وعند الله نلتقي بعيداً عن مملكة الظالمين قساة القلوب الذين يذبحوننا لأجل أسمائنا.. ولتحترق يا عراق بيد أبنائك وتندفع الرحم الطاهرة ثمن الولد العاق.. من الذي يقتلك يا عراق: عدوك أم بنوك؟ وضعوا الدريل في مفرق رأسها وتحرك عمود الحديد يسحق العظم ويمزق الرأس الذي لم يحلم سوى بالخير والأمنيات البريئة.. ماتت أمام عيني.. ثم أحرقوا جثتها أمامي ليزيدوا من قهري وذلي.. حملوا جثتها التي يتطاير الدخان الأسود

من احتراق قلبها الأبيض ليلقوا بها في مقابل القمامة لتأكل كلاب العراق  
جثث أبنائه.. وليكن بطن كلب ضال أميناً عليها أكثر من جوف قبر عراقي.

"يزيد" .. لم يرحموه.. قالوا لي: سميته باسم قاتل "الحسين"؟  
والله لنحرق قلبك يا ملعون. صرخت فيهم: سميته باسم أبي.. ما لي  
والحسين ومن قتلوه؟ اقتلوني قبل أن تفعلوا به شيئاً.. لكن لا أذن تسمع  
النداء ولا قلب يرق للضعف والرجاء.. كانوا يريدون إذلالي وسحق قلبي..  
رفعه جندي من ذراعه الغضة الضعيفة.. فصرخ يزيد صرخة الزهرة  
المظلومة والعصفور التائه تحت عواصف النار.. استحلفتهم بالله وما  
يعبدون أن أحمله لدقيقة واحدة.. أخذته أضمه لصدري بيد مقيدة  
وقلب كسير.. فابتسم يزيد وشعر بالأمان في حضن والده.. لا يعلم أن أباه  
قلعة سقطت أسوارها ودرع من ورق لا تحمي دماً ولا تدفع شرراً.. ظل على  
بسمته الوداعة يعبث بأنامله الصغيرة في وجهي.. لا يعرف المسكين ماذا  
ينتظره على يد هؤلاء الهاربين من مملكة النار.. انحنيت عليه لأقبله  
القبلة الأخيرة وقبل أن تستقر شفطاي على جبينه الصغير نزعه أحدهم  
من بين يدي ليظل المر عالقاً بشفتي ما حييت.. أمسكه جندي من يمينه  
وأخر من شماله وقالوا: انظر ليزيد.. وجاء الثالث فحز عنقه بسكين يزيد  
طوله على طول طفلي.. قطعوا رقبتة.. نحروا شرايينه كعصفور.. لم  
يجن من الدنيا شيئاً ولم ينطق فيها بكلمة.. سالت الدماء تغطيه وهو  
ينتفض تحت مخالب القسوة الخائنة.. وتغطي معه قلبي وأحلامي التي  
حطموها ليشعلوا النار في روحي ما حييت على ولدي وزوجتي. وضربت  
الفاجعة عمق قلبي وأنا أصرخ بصرخة عائشة: يا رب.. يا رب.. ليس لي

غيرك في الأرض من ملاذ.. لا أصرخ إلا عليك يا الله.. وسقطت فاقداً  
وعيي.

انهار أحمد باكياً بين يدي وأنا أضمه لصدري.. أشاركه الدموع  
الغزار والنار تأكل قلبي.. وأنا أجهش بالبكاء.. رحماك يا ربي بأخي: كل هذا  
احتملته يا مسكين؟ أي بشر له طاقة بهذا؟ اللعنة على أوطان تسحق  
أبناءها وتلقي بجنثهم للكلاب.. هل ندافع عنك أيتها الأوطان أم نشن  
الحرب ضدك أيتها القاسية؟ تماسك أحمد بعدها قليلاً وقال لي:

لا أدري لماذا لم يقتلوني.. ففي العراق لا تدري ما سبب موتك ولا  
سبب حياتك.. فمصيرك معلق دائماً بقرار الآخرين.. وعليك أن  
تدفع ثمن أخطاء ارتكمتها غيرك.. ظللت أهيم على وجهي فاقداً  
رشدي.. وألقت بي الشرطة في مصحة للمجانين.. لا أدري هل  
بقيت بها شهوراً أم سنين.. حتى عاد لي رشدي.. فذهبت لبيت  
"فضل" الذي كان يشعر بعقدة الذنب نحوي.. أشاهد المأساة  
بلا شعور.. لا أحزن لمن يقتلون كل يوم ولا تزعجني أصوات  
الانفجارات في كل مكان.. لم أعد أكثر حتى لو احترق العالم  
بأسره.. فقدت إيماني بكل شيء: بالوطن.. بالحق.. بالحرية..  
بذاتي.. وحتى إيماني بالسماء أصبح باهتاً.. استوى عندي الموت  
والحياة والشك واليقين.. وقررت العودة بأي طريقة حتى لو  
كانت حياتي هي الثمن.. لا بد أن أغادر هذا الجنون.. ووعدني  
فضل بأن يجد لي طريقة يخرجني بها من العراق.. وفي غضون  
أيام جاء يخبرني بأنه اتصل بأحد أصدقائه في الحكومة

الجديدة ووعده بأن يجد لي مقعدًا على أول طائرة تعلق لمصر..  
وعلى باب الطائرة وقف "فضل" باكياً: سامحني يا أحمد.. أنا  
من جنّت بك إلى هنا حيث سقتك الأقدار كأس العذاب.. فقلت  
له: لا تعتذر يا فضل فهذه أقدارنا نسير عليها بغير إرادة.. نسير  
ونبتسم أو نصرخ لكن لا بد لنا من المسير.. وجئت إليكم حاملاً  
همومي وأحزاني.. هل فهمت الآن يا عاصم لماذا كنت أحجب  
عنكم أمري؟ حتى لا تشاركوني ميراث الألم.

أصبحت الكلمات عالقة في حلقي:

سماذا يمكن أن أقول لك يا أحمد؟ لك الله وحده.. فأني كلمات  
سأقولها لن تخفف من حجم ما قاسيت.. فاصبر إنما هي  
أقدارنا نسير عليها وعسى أن يجعل الله لنا فرجاً قريباً لكل  
أوطاننا.

فتبسم بسمة اليأس:

صديقي لم يعد يعنيني شيء.. لم يعد لي وطن ولا قضية.. إنما  
أعيش فقط لأني لم أمت بعد!!

غادرنا المكان وأنا لا أدري هل فعلت الصواب عندما أخرجت هذا  
البركان المختنق في صدره.. أم أنني أخطأت حين أعدت الحياة لذكرياته  
المفزعة؟ لكن ما كنت واثقاً منه أنه استراح ولو قليلاً عندما شاركته  
حملة.

obeikandi.com

الوطنُ إذا تجلّى

قررت بعد ذلك أن أكتب مجموعة من المقالات عن العراق محملة بغضبي الذي انتقل لي بما لاقاه أخي.. فكان أول مقالاتي في الجريدة "أيها الشيعة.. لكم دينكم ولي دين" .. فاستحسنه رئيس التحرير على الرغم من قسوته ونصه اللاذع.. ربما لأن سياسة الدولة مخالفة لإيران على طول الخط فلاقي المقال هوى أنفسهم.. ثم أتبعته بمقال "الحلم الكاذب": "احمل حلمك أيها المسيح الكذاب وامض عن بلادي.. منذ متى يعطف الذئب على جوع القطيع؟ أمريكا التي حطمت أمة بكاملها لمجرد بضع سفن أحرقت.. وذبحت مئات الآلاف في فيتنام لأجل الحلم الكبير.. جاءت لتعلمنا الحرية.. حرية بمذاق الذل والمهانة.. عفواً يا راعي البقر.. الحرية لا تُمنح ولكن تُنتزع.. لأن من يمنحها اليوم يسلمها غداً" .. كان مقالاً طويلاً ناقماً على أرباب الحرب الصليبية الجديدة.

وكان المقال الثالث بعنوان "لماذا مروا من هنا؟" .. فلم يكن ممكناً أن أتجاهل دور النظام المصري في غزو العراق.. فقناتنا كانت هي الطريق السهل إلى قلب العراق.. والسهم المنطلق لصدره من قوس قناة السويس خرج.. أي قانون دولي هذا الذي يجعل الشقيق يسلم شقيقه لسكين الجزائر؟ لماذا كان رصاص جنودنا حماية لبوارج أمريكا لتمر إلى ذبح بغداد.. إذا كان هناك قانون دولي فأين القانون العربي؟ أين الضمير العربي؟ أين النخوة العربية؟ كلها سقطت حين مروا بين شراييننا لذبح العراق. لكن فوجئت بأن المقال لم يتم نشره.. اتصلت برئيس التحرير فتعلل بكثرة المادة المنشورة وأن المقال طويل جداً.. فقلت له بحزم: إما أن تنشر المقال في العدد المقبل أو انتظر استقالتني من العمل معكم..

حاول تبرير موقفه معترفاً بأن المقال نقد لاذع للنظام وأن جريدته جريدة قومية!! فقلت له: قومية أم حكومية؟ هل معنى أن الدولة تدفع لكم رواتبكم أن تكتبوا فقط في التغزل بها والتسبيح بحمدها؟ وهل إذا كان تمويل الجريدة بتبرع إسرائيلي فهل هذا يعني أنكم ستصدرونها بالعبرية لتغسلوا وجه صهيون؟! إن أمة لا تمتلك حق الاعتراض فهي لا تمتلك حق الحياة.. عفواً سيدي.. أما أنا فلن أتحدث من بطني الذي تطعمونه براتبكم بل سيظل قلمي مؤتمراً بأمر رأسي وليس الـ"فيزا كارد".. غداً ستصلك استقالتي عبر البريد. أغلقت الهاتف دون أن أنتظر رده.

في اليوم التالي جاءتني رسالة من سارة: "من فضلك لا تتسرع في اتخاذ القرار".

لم أهتم برسالتها وقررت ألا أرد عليها.

هل أصبحت يا سارة طريقهم إلى قلبي؟ وهل عرفوا أنك وحدك من تستطيعين تغيير قراراتي؟ لكن هذه المرة لن يجدي معي شيء ولا حتى أنت.. لن تساومني على التخلي عن حق الغضب فلم يعد لنا غيره.

اتصلت بي بعدها تطلب مقابليتي.. فقلت لها: يسعدني مقابلتك.. لكن أمر الجريدة منتهٍ فلا تزعجي نفسك بإقناعي.. فردت: لا.. أنا فقط أريد أن أراك فأنت لم تتصل بي منذ شهر.. وكنت أنتظر مكالمتك حتى يؤسست فقررت أن أخطو أنا إليك.. فإن لم أكن أوحشتك فإنك أوحشتني.

غريب أمرك يا سارة.. الآن تفتقديني.. الآن فقط.. هكذا لا تأتي  
الأشياء التي يطول انتظارنا لها إلا في التوقيت السيئ.. هل يمكن أن يأتي  
الحب في زمن لا يصلح إلا للغضب!؟

اتفقنا على أن نلتقي في العاشرة مساءً.. لكن هذه المرة لم يكن  
لقاؤنا بالزمالك وإنما بمقهى في وسط البلد حيث يستهويني الذهاب إلى  
هناك دائماً.. فلم يعد يسعنا إلا الأماكن المحايدة ونقاط المنتصف.

التقيتها أخيراً.. كعادتها فاتنة.. لا سيّما أنها ترتدي اللون الأزرق..  
تخللني عطرها الأثير قبل أن أصفحها:

اشتقتك يا سارة!

ابتسمت:

ولهذا لم تتصل بي كل هذا الوقت!؟

أنت تعلمين جيداً أنني قدمت كل شيء وأخبرتكم بمكنون  
صدري.. لم يكن ممكناً أن أفرض عليك علاقة من طرف واحد  
فأنا أكره الطرق أحادية الاتجاه؛ لأننا إذا أخطأنا في سيرنا  
واكتشفنا أن اللافتة على ناصية الطريق كانت خدعة ساعتها  
لن نمتلك حق الرجوع وسنخضع لحب بطعم الألم تحت  
الإقامة الجبرية.. وأنا رجل ما زال يؤمن بحق تقرير المصير.

كلماتك تربيكني.. فأنا أخشى من الرجال الذين يتقنون لعبة  
الكلمات.. لا يمكن القبض على معانهم أبداً.. ماذا تفضل:  
العصير أم القهوة؟ فأنا دعوتك وأنا من سيدفع الحساب.

المهم أن تدفعي فاتورة شعوري نحوك وليس المشروب الذي  
تقدمينه لي.

ضحكت بصوت عالٍ:

حسناً كم تريد مقابل شعورك؟  
أنت.

لكن هذا ثمن باهظ يا عزيزي.. إذا منحتك نفسي فماذا سيبقى  
لي لأقنعتك بالبقاء؟

ولماذا تظنين أنني سأقرر الرحيل؟

لأن كل من مروا بحياتي رحلوا يا عاصم.. حتى سئمت من قوافل  
المهاجرين عني.. لم أعد أطلب حباً إلا في زنازة فردية.. أفعالها  
بغير مفاتيح.

يبدو أن وراءك قصة كبيرة.

بل جرح كبير يا عاصم.. صدقني أنت تروقني جدًا.. أنت مريبك  
تخترق نفسي ببراعة قناص.. وصوتك يحمل لي رسائل حبك..  
لكن قلبي مغلق على نفسه يأبى مصافحة المارين بالطريق  
السريع.

همل تحبين أحدهم يا سارة؟!!

ردت بصوت خفيض:

نعم يا عاصم أحب.. أو بمعنى أدق أحببت.. ولا أريد أن أكرر  
المأساة مرة أخرى.. لا أستطيع أن أمنحك أكثر من عقلي.. أما  
قلبي فقد ضاعت عذريته قديمًا ولست مؤمنة بامرأة تحب أكثر  
من مرة.. فهل تقبل بقلب مغسول لكن ما زالت به بقع من  
عشق قديم؟!!

إذا كنت صادقة في حبك فسيزيل عشقي كل أثار من مروا  
بقلبك.. فقط كوني صادقة مع نفسك.. لا تتقدمي نحوي لكن  
أيضًا لا تهربي.. اتركي الريح تحرك قاربك كيف شاءت واطرحي  
المجاديف في عمق البحر.. الحب لا يأتي بقرار ولا الفرار أيضًا..  
نحن مسكونون بأقدارنا نفعل ما يشاء القدر ونظن أننا نفعل  
ما نشاء!!

حسنًا.. فليس لك أن تلومني على شيء ما دمت تؤمن بالقضاء.

همل هذه نية مسبقة للفشل تحت غطاء من مبررات القدر؟!

سما أطلبه منك أن تمنحي نفسك حق التجربة.. فقد أحببتك في  
الظل لثلاث سنوات دون أن تعرفي بوجودي حتى.. وها أنت الآن  
بين يدي.. فثقي بالقدر وامشي مغمضة العينين على عزفه.. لا  
أدري لماذا تضعين الحواجز بيننا دائماً؟

لأنني لم أعد أحتمل الألم يا عاصم.. ماذا تعرف عني أنت وعن  
آلامي؟

كل ما أعرفه أنني أحبك ولا يعنيني غير هذا.

لكن هل تدري ماذا ورائي وأي قصة مررت بها؟

أخبريني ما قصتك.. شاركتني أمرك كصديق وانسي أن قلبي  
معلق بين عينيك.

وهل تؤمن بالصدقة بين رجل وامرأة أمها الشرقي؟ فكما قال  
حكيم قديم: "ما الحب إلا صداقة اشتعلت فيها النار".

ابتسمتُ:

فمن يمنحني عود ثقاب لأشعل حريقي الخاص؟

كم عمرك يا عاصم؟

أنا في الثلاثين.

أوه.. أنا أكبرك بثلاث سنوات.. إذًا هذه هي العقبة الأولى بيننا!!

لا يا عزيزتي.. إذا احتسبنا أنني أحببتك ثلاث سنوات على انفراد هذا سيجعلنا متساويين في العمر.

سيبدو أنه لا مفر منك أيها المشاكس الوسيم.. سأفشيك سري الذي لم أخبره حتى لأقرب الناس مني.. قبل أن أعمل بالصحافة وكنت عندها في الخامسة والعشرين من عمري تعرفت على رجل كان في الأربعين.. تعرفت عليه في حفل زفاف صديقة.. كانت صديقة!

توطدت علاقتي به سريعًا.. كان رجل أعمال يقضي معظم السنة خارج مصر.. لكنه كان في إجازة لمدة ثلاثة أشهر كنت ألقاه فيها يوميًا.. لم يكن فارق العمر بيننا يزعجني.. بل كان يغريني به أكثر.. فقد كان مفعماً برجولته بعيدًا عن طيش الشباب.. فتح أبواب قلبي المغلقة وتسرب حبه في كل خلاياي.. كنت مغرمة به حد الجنون وصارحني هو الآخر بحبه.. وعلى الرغم من علمي بأنه متزوج لكن لم يكن ثمة شيء يمكنه أن يحول بيني وبين حيي الأول.. ولم أكن أهتم لنهاية قصتنا ولا يعنيني أننا نسير في طريق يغير علامات تحدد معالم الطريق.. أعيش معه فوضى الحب وأستمع بكل لحظة.. تكفيني لحظات تسقط من جدول عمله وأسرته.. أخفيت حبه حتى عن أمي لأنني كنت أعرف أنها سترفض الأمر ولم أكن مستعدة للتضحية به لأجل أي شيء أو أي شخص.. مرت معه الشهور

تلو الشهور وقد استقر بمصر من أجلي.. وحبه ينمو بداخلي كشجرة لبلاب تتسلق على كل الجدر والأسوار وتغطي كل مساحاتي الفارغة.. أتماهى وأتلاشى في دخان سيجارته.. أعشق أنوثتي في لمسة يده.. أغار من عطره الذي يلامس جسده من دوني وأحقد على رابطة عنقه التي تنام على صدره بدلاً مني.. سافر ذات مرة لمتابعة أعماله في لندن وطالت غيبته دون أن يتصل بي فكدت أموت أماً.. تتصاعد نفسي حشرات ويرتج عقلي في رأسي من القلق والجنون.. أدركت أنني لا حياة لي من دونه.. جسدي يؤلمني لحرمانه من لمسته.. وجهي تاهت ملامحه لأن عينيه لا ترياناه.. كيتيمة وحيدة فقدت زادها في عرض البحر.

وأخيراً وبعدما أشرفت على الهلاك رجع إلى مصر معتذراً بوجود مشاكل كبيرة شغلته عني.. فقلت له: لن تبتعد عني بعد اليوم ولن أسمح لك.. غيبتك أطاحت بعقلي وشوقي لك هدني.. امنحني حق الإقامة معك في فراش لتسكن جسدي كما سكنت قلبي.. فمن الظلم أن تستعمر روحي وعقلي وتترك جسدي تهبسه الرياح ويعصف به الشوق.. قال: ولكن أنت تعلمين ظروفنا الآن يا سارة.. صعب جداً أن أرتب أمر زواجنا في الوقت الراهن.. سيحطم هذا زوجتي المريضة ويشوش على عملي.. فدعيني أجهز لهذا الأمر وأعدك أن يكون أقرب مما تتوقعين. فلم أدر كيف جاءت جراتي حين قلت له: ليس من الضروري أن نتزوج فأنت رجلي حتى لو لم نتزوج. لن أترك مصيري بين يدي ورقة مأذون وشاهدين.. سئمت من مطاردة العيون ويقتلني ألا أعانقك في عاصفة اشتهائي لك.. كن معي فقط واملأني بك فلا يمكن أن تطيق المرأة أن تحرم من جسد حبيبها

غطاءً لكل أشواقها.. فأنا أهواك بكل كياني.. برد الحرمان منك يبعثر  
هدوئي فامنحي دفنك.. لا تجعلني أشعر أنني أستجدي وصلك!!

وكان نبيلاً كما رأيته دائماً فقال: دعينا نتزوج في السر إذًا.. لا  
يمكن أن أقبل بلقاء غير مشروع مع المرأة الوحيدة التي أحببتها.. فأكبرته  
أكثر ورفعت كلماته وموقفه مقداره الكبير أكثر وأكثر في نفسي.. تزوجنا  
سرّاً فصارت الدنيا كلها ملك يميني ولا أكثرث لأي من مصائبها.. فهذا  
حبيبي صار معي يشاركني حلمي وعقلي وجنوني.. ويشاركني فراشي أيضاً.

كنت أقتات من الساعات التي نقضيها سوياً في شقة مستأجرة..  
متعتي أن أجهز له طعاماً بيدي وأضع لقيماته في فمه بيدي وأغسل يديه  
بيدي.. أقول له: لا يملك حق التصرف فيك أحد سواي.. أنت ملكي  
وحدي وعالمك مملكتي.. أراقبه وهو نائم بجواري حتى لا تضيع لحظة  
دون أن أعتصر الحب فيها عصرًا.. وكان يحرص على الاتصال بي كل يوم  
أكثر من مرة عندما لا يأتي إلى شقتنا.. وعلى الرغم من غيرتي وألمي من  
غيابه لكن كنت مستعدة لتحمل نتائج اختياري وقراري.. فأحبس ألمي في  
صدري حتى لا أنقل له حزني.. أمنحه الحب والسعادة.. أشاركه فرحتي  
وأشواقي.. أما ألمي فكان من نصيبي وحدي.. حتى تحرك حبه بداخلي  
ونسج الشوق طفلاً بأحشائي.. لم أكن أتوقع حدوث هذا.. لكنه حدث  
على أي حال دون ترتيب أو قصد.. وعندما أخبرته أنني أحمل طفله في  
أحشائي ضمني إليه معلناً عن سعادته بأن يربط بيننا طفل لتزداد  
الجسور.. أصبح أكثر اهتماماً بي.. وعندما ناقشته: كيف سأواجه أمني

وأسرتي والناس بهذا الذي ينمو في أحشائي؟ قال: لا تهتمي يا حبيبتي سنعلن زواجنا في أقرب فرصة.. لن أدعك وحدك في مواجهه الإعصار.. وضممني لصدره ليدفن كل مخاوفي ويمحو كل ما سطرته يد الخوف في نفسي.

سماذا كان اسمه يا سارة؟

لا داعي للأسماء.. فبعض المارين بحياتنا يتركون ندبات وجراحًا تغني عن ذكر أسمائهم.

هل أعرفه؟!

لا أظن.. لكن اعفني من ذكر اسمه.. بعض النهايات تبقى بلا خاتمة.. إنها قوس مفتوح على عاصفة الجراح لا تكف أنواع الألم عن العصف بكل وجودنا.. لا أدري لماذا أخبرتك بما لم يعرفه غيرك يومًا.. ربما لأنني غير مستعدة لتكرار المأساة.. ربما لأنني أراك حلمًا جميلًا لا أريد له يقظة مفزعة!! هل ترضى بأن أظل صديقتك يا عاصم.. صديقتك فقط؟

مريضيني يا سارة أن تكوني بجواري مهما اختلفت المسميات.. فأنا مشبع بحبك.. حتى إنني كثيرًا ما أتجاهل موقفك تجاهي مكتفيًا بما أحسه نحوك.

حماصم.. أرجوك لا تترك الجريدة.. أريدك أن تشاركني أي شيء حتى لو كان رابطة العمل فقط.

صديقي لن أحترم نفسي إذا تراجع في قراري.. صعب جداً أن نشعر بفقدان مبادئنا.. لا سيّما حينما لا نملك غيرها.

حسناً.. لن أضغط عليك.. لكن فقط عدني بأنك ستفكر في الأمر.

أعدك بهذا.

انتهى لقاءنا بعدما باحت لي سارة بسرّها الذي أشعل الحرائق في نفسي وأنا لا أدري هل أمتلك حق الغيرة عليها أم أنه من الظلم أن أحكمها على ماضي لم أكن شاهداً عليه ولا طرفاً فيه. لماذا نشعر بأننا نمتلك حق تقرير التاريخ مع من نحب؟ لماذا نركب آلة الزمن لنغزو الماضي ونرغب في إعادة كتابته على الرغم من أننا لا نمتلك أكثر من مطالعته؟!

وهل ما زال يسكنك حب هذا الذي حجبت اسمه عني يا سارة؟ أي نوع من الرجال كان؟ هل كان وسيماً جداً؟ كيف كانت نبرة صوته ومذاق أنامله؟ أين طبع قبلاته على جسدك؟ أي ألم وأي مصير قررت لي أيها القدر؟ لماذا هي من دون النساء؟! تركت عذرية علياء وقلبيها البكر وجسدها الخام لأحب امرأة مربوطة بحبال رجل غائب.. هل حان لي أن أنسحب من قصة بطلها رجل آخر.. رجل غائب يسحق حلمي من خلف

أستار الغيب.. وأن أترك مدائن شيدّها غيري.. أم أظل أقيم كغريب  
يستريح ليلة ليواصل عناء السفر ووحشة الطريق إلى المجهول؟!

عدت لأمي لتشكو لي مشاكلها اليومية وهي غاضبة لندرة أنابيب  
الغاز وغلاء الأسعار قائلة: "هذا من ذنوبنا.. لو كنا أناسًا صالحين لجعل  
الله من يحكمنا رجالاً صالحًا.. لكننا لا نستحق إلا هذا".

ما أعجب شعوبنا التي يجلد فيها البسطاء ذواتهم ويحملون  
أنفسهم جرائم الجلادين وينصبون من قهرهم سببًا لنذلمهم ويغسلون يد  
الجنة بماء الإيمان ومنظفات القدر!! نحن أمة تصف نفسها بالمدنية  
العاصية حتى لا تمارس حق الاعتراض ولا تنطق "لا".. هل فعلاً من  
أعمالنا سُلِّط علينا أم من صممتنا؟! من الجاني: القضاء أم الاستسلام؟!

وطالبتي بإقناع أحمد بالزواج حتى يخرج من حالته: لا يمكن أن  
يظل هكذا يا عاصم.. الزواج سيلهيه وينسيه يا بني.. وقد تعبت من  
إقناعه.. كلما فاتحته في هذا نهزني وقال: اتركيني وشأني.

كان أحمد يعامل أمي بقسوة في الفترة الأخيرة وكلنا يحتمل غضبه  
ولا نحب أن نزعجه بشيء.. وعندما قلت له: لماذا لا تفكر في البحث عن  
عمل يا أحمد فأنت محاسب ماهر؟ قال لي: عندما أطلب منك أن  
تعطيني مالاً طالبني بالعمل. كانت حساسيته المفرطة تجعلني أفكر ألف  
مرة قبل أن أحدثه في شيء.. لم أعد أدري كيف أوزع اهتمامي.. بأخي  
الذي يشعرني بأنه غريب بيننا.. أم بأمي التي تحمّلني كل مشاكلها.. أم

بسارة التي لا أعرف بداية ولا نهاية لأمرها! كل يوم يمر تزداد همومي وتنسج المشاكل حولي خيوط العنكبوت الكثيبة وأنا أنتظر أن تهب نسائم الأمل لتعصف بنسج العناكب.. لكن هذا ليس زمن النسائم!!

أصبحت سارة تتصل بي بشكل شبه يومي وتكررت لقاءاتنا وأحسست أنها صارت قريبة جداً مني.. ولست أدري هل هذا لأجلي وقناعتها بي أم لأنني صرت خزانة أسرارها فلا شيء أثقل على نفوسنا من تحمل الأسرار.. كثيراً ما نفضل البوح ونغامر بالفضيحة على أن نكابد مشقة احتمال خيباتنا السرية وقصصنا المبتورة.. حاجتها لي كانت مثل حاجتي لصديقي الوحيد محمد اليماني الذي ألقى بكل همومي وأسراري بين يديه.. لكن محمد أصبح متحفظاً جداً معي في الفترة الأخيرة.. دائماً يسمع ولا يتكلم.. ولا أعرف سبباً لتغيره.. هل يعتب عليّ في أمر علياء؟ وهل يحق له أن يحاسبني على حب لم أشعر به يوماً؟ ترى أي شيء غيرك يا صديقي؟

اتصلت به لأقبله فلم يرد على اتصالي.. ثم ذهبت إلى المقهى فصادفته هناك. وعندما سألته: لماذا لا تتصل بي ولا ترد على اتصالاتي؟ أكد أن هاتفه المحمول كان بعيداً عنه أو نسيه.. فقلت: لا عليك يا صديقي.. ولكن ما هذه الوجاهة؟ أراك متأنقاً للغاية.. أي سر وراءك؟ لا شيء.. إنه فقط عيد ميلاد علياء وقد دعيتي للاحتفال معها.

لا أدري لماذا شعرت بتغيير عندما قال لي هذا وصار صوتي مبحوحًا  
وسألته:

وهل أحضرت لها هدية أم لا؟

في الحقيقة لم أفكر في هذا.. لتأتِ معي لنختار هدية مناسبة.

ذهبنا سويًا لشراء هدية مولدها.. اخترت له بيدي خاتمًا مميزًا وأنا  
أشعر أنني أقدم له ما يربطه بعلياء من بعدي.. وقبل أن يذهب قلت له:

لا تنس أن تحمل معك باقة من الزهور.. فعلياء لم تحب في  
حياتها شيئًا أكثر من الزهور.

فتبسم:

أنت أدري بها مني ولا شك.. وسأعمل بنصيححتك.

ذهب محمد وأنا أتساءل: هل من حقي أن أغار على حب رفضته؟  
وهل تصير المرأة التي أحببنا وقفًا علينا وحكرًا لا يحق لأحد أن يقترب  
منها؟ ما زالت عنصريتنا الشرقية تتحرك بداخلنا وننظر إلى النساء كأحد  
أمتعتنا التي نرفض أن يشاركنا بها أحد حتى بعد رحيلنا.. وتردد السؤال  
الذي لم يتوقف بداخلي يومًا: هل فعلت الصواب بتركها أم أنني ارتكبت  
أعظم حماقاتي؟ ومع ذلك كان يسعدني اقتراهما من بعض على الرغم  
من أنني كنت مشفقًا على علاقتي بمحمد.. فليس أصعب من أن يكون  
لك صديق أحببتك فتاته من قبله.

مرت شهور كثيرة على انفصالي عن علياء.. تراها قد نسيت حبي  
وشفيت من جرحي؟ وهل محمد هو الدواء الذي سيزيل أثري من  
عروقيها؟ كم مرة قابلها؟ وأي من الحوارات دارت بينهما؟ وهل نظرت إليه  
بذات النظرة الحانية التي كانت تنظر لي بها؟ وهل ستمنحني سارة ما  
خسرته في علياء أم أن زمن التعويض قد ولى وانتهى؟!

أصبح محمد يحدثني كثيرًا عنها ولا يذكر علاقتي السابقة بها  
ويتحاشى ذلك وكأنه لم يعرف أن علياء عاشت من أجلي سنوات.. هل  
من السهل أن تمحو إنسانًا بمجرد اتخاذ قرار؟ وهل سيتعايش محمد مع  
الأمر ويفصل بين صداقتنا وعلاقته الوليدة بعلياء؟ سئري يا صديقي أي  
نوع من الرجال أنت!!

كم تكون خسائرنا عظيمة حين نفقد صديقًا نثق به.. فالصديق  
هو قصة حب من نوع مختلف.. هو مرآة نرى بها وجوهنا بغير مساحيق  
الزيف.. ونتعري أمامها من دون خجل.. نبوح له بأسرارنا فنتخلص من  
وخز الجراح.. إذا خسرتك يا محمد فلمن سأشكو عنائي: لأخي الذي  
أصبح زاهدًا في الحياة أم لأمي المشغولة دائمًا بمتاعب البيت وحال  
أبنائها؟ أرجوك يا محمد خذ علياء ولا تسلبني حق الصداقة.. فقد  
شبعنا من الخسائر ولم أعد أحتمل المزيد.

عدت إلى المقهى حاملاً أوراقى وقلمي لأبث السطور أشجاني لأجعل  
من الصفحة البيضاء صديقًا صامتًا.. يستمع لي ويسير دائمًا في اتجاهي..  
فعندما نكتب نخرج عن ذواتنا ونرى أنفسنا بعين القلم. مقهى "التركي"

كان دائماً الركن الذي أستريح به لأخلو بنفسى فأكتب حتى أفرغ حمل صدري المثقل.. أنظر لوجوه الناس من حولي لأقرأ هموم الوطن الذي رسم الحزن على عيون أبنائه.. لم تكن تخدعني ضحكاتهم العالية لأنها كانت دليل هزيمتهم النفسية.. فهذا الشعب له طقوسه الخاصة في ممارسة الألم.. فكلما اشتد قهره أطلق نكاته كرصاصات على صدر من يعذّبونه.. النكات هي سياسة هذا الشعب منذ القدم.. يسخر فيها ممن يستعبدونه.. يعلن أن رقصهم المبتذل لا ينطلي عليه وأن وعودهم الزائفة لا تخدعه.. النظام يقتلنا بقراراته السياسية الجائرة فنرد عليه بقرارات النكات اللاذعة.. هذه بتلك.. إنها نوع من المخدرات التي ننسى بها همونا!!

ما زال المقهى يضح من حولي.. المقهى هو وطن مصغر أجد به كل أطياف مصر.. آلامها وأحزانها.. صمتها المطبق وثورتها المحتقنة.. صوت الرفض وصوت النفاق.. كثيراً ما كنت أجالس صديقنا "حسن" المحامي الذي تتقلب به الأحوال دائماً.. فتارة يرفل في ثوب الغنى وكثيراً ما يعض أصابع الفقر.. كان يدخن النرجيلة بشراهة وينفق فيها أكثر من دخله وقدراته المادية حتى أصبح له "حساب على النوتة".. فهو كثيراً ما يأتي دون أن يدفع الحساب.. وساعتها يتحرش به العاملون الذين يجدونها فرصة لإخراج حقدهم.. فيتعمدون إساءة الخدمة وهو لا يمتلك حق الاعتراض لأنه يعلم جيداً أنه لن يدفع ما يخرسهم به.. ومع الوقت أصبح أسامة يناديه باسمه مجرداً بعدما كان لا يناديه إلا بلقبه "أستاذ حسن" أو "حسن بيه".. لقد سقطت هالة الحماية التي تمنح المرء احترامه في

هذا الوطن.. فقيمتك لا تتحدد إلا بمقدار ما تدفعه من بقشيش  
والسيارة التي تركبها والملابس التي ترتديها.. أما الإنسان نفسه فليذهب  
للجحيم! حسن يشكو لي دائمًا بمقولته المريرة: "ولاد الناس اتهدلوا"..  
وأنا أنصحها أن يخفف من جلوسه بالمقهى حتى تقل نفقته فيرد:

وهل سأجلس في البيت بجوار زوجتي أنظف المطبخ؟ الجلوس  
في البيت يقتلني.

لكن الجلوس في المقهى يقتل كرامتك!

فيرد ليتخلص من المعادلة الصعبة التي وضعتها بها: "ربك هيفرجها".

على العكس منه كان "مرتضى" الذي يعمل بالمحاماة أيضًا.. فقد  
كان حسن شخصًا نبيلًا عندما تنفج أزمته يغدق بالبقشيش على كل من  
يعملون بالمقهى حتى يسترد كرامته السلبية أو حتى يشترها بمعنى أدق..  
وساعتها تعود له ألقابه التي فقدوها. أما مرتضى فكان مثالاً للمحامي  
الفاسد.. والجميع يعلم أنه كاذب يمارس النصب على من يقابله.. لكن  
جيبه لا يخلو من المال.. ولذلك كانت ضحكته أعلى صوتًا ولا يتردد في  
إهانة الجميع.. فينادي النادل: أحضر لي كوبًا من الشاي يا ابن القحبة..  
والنادل بيتسم كأنما استمع إلى نكتة ظريفة فلا بأس بسبِّ الأمهات ما  
دام المقابل مجزيًا!! كان مرتضى يتمادى في إذلال العاملين الذين  
يحرصون على نظافة المكان بينما يتعمد هو إلقاء سجاثره بعيدًا عن  
المنفضة والبصق فوق الأرض بوقاحة. وكثيرًا ما يأتي إليه أحد أصدقائنا

من الشباب يشكو عدم قدرته على الالتحاق بعمل أو وظيفة جيدة.. فيتبسم له كأنما ظفر بصيد سمين: "لا تحمل همًا.. قبل نهاية الشهر سأجعلك تلتحق بشركة بترول أو شركة أدوية على الأقل وبمرتب خيالي".. هذا ما حدث مع صديقنا "محمد السيد".. ذاك الشاب الذي بلغ الثلاثين وهو ينتقل من وظيفة لأخرى وهو حاصل على البكالوريوس في العلوم.. فأخذ مرتضى منه خمسة آلاف جنيه ووعده أن يتوسط له في شركة بترول.. ومرت شهر دون أن يفي بما وعد.. وبعد مفاوضات كثيرة استرد محمد ماله.. ولكن عادت إليه المشكلة نفسها.. فما زال يعاني البطالة.. فلم يجد أمامه إلا مرتضى مرة أخرى.. وعلى الرغم من تحذيري له حتى لا يكرر الخطأ نفسه.. لكن ضغط البطالة وهوان الفراغ والشعور باليأس والإحباط.. كل هذا كان كفيلاً بمحو صوت العقل.. فليس شيء أصعب من أن يمكث الشاب بيته بلا عمل عالة على أبيه الذي كان يعلم أن يشاركه ابنه أعباء الحياة فإذا به يصبح عبئاً جديداً. وكالعادة لا يفي مرتضى بوعده.. فيلجأ محمد إلى "علاء" أمين الشرطة الذي يأتي للمقهى يشاركنا لعبة الشطرنج.. كان علاء كريم الخلق ويبدو رجلاً شريفاً على عكس الصورة النمطية لرجال الشرطة في مصر؛ حيث أصبح الناس لا يرون في رجالها إلا لصوصاً بملابس رسمية.. فرجال المرور لا عمل لهم إلا ابتزاز أصحاب السيارات الملاكي وفرض الإتاوات على سائقي سيارات الأجرة.. وإذا قادتك حظك العاثر إلى قسم شرطة في أي قضية فعليك أن تغدق على كل من بالقسم حتى تحفظ شيئاً من إنسانيتك.. وإلا أذاقوك سوء العذاب.. وخلصوا بينك وبين المساجين

المحترفين الذين يفرضون عالمهم داخل الزنزانة و يقيمون قوانينهم الخاصة.. فلكي تنام داخل الزنزانة عليك أن تدفع لكبير المحبوسين داخلها حتى تحصل على مقدار نصف متر لتنام فيه.. وإذا شئت مساحة أكبر فعليك أن تدفع أكثر.

علاء لم يكن من هذا الصنف.. فعلى الرغم من أن عمله كان كفيلاً بأن يضمن له ثراءً سريعاً لكنه كان دائماً يردد قوله: "أبويأ رباني بالحلال ومش عايز أربي ولادي من الحرام".. فأتعجب لوجود رجل مثله.. فالحصول على شرطي شريف أصعب من الحصول على وزير نظيف بالحكومة. فكان علاء يمثل آلة الترهيب والضغط التي يستخدمها محمد حتى يسترد حقوقه من مرتضى.

وبجوار كل هؤلاء يأتي "عم بخيت" المسئول الأول عن تقديم المشروبات للزبائن.. كان رجلاً في منتصف الخمسينات من عمره لكن هيئته تخبر عن رجل جاوز الستين نظراً لشعره الأبيض الخفيف وفمه المظلم لخلوه من الأسنان.. رجل لزج قبيح اللسان لا يكف عن إلقاء النكات الجنسية ووصفه لكل طاقم العمل الذي معه بأنهم شواذ.. كان جيبه لا يخلو من أنواع المخدرات والمنشطات الجنسية على الرغم من أن زوجته توفيت من سنين.. بخيت كان أخبثهم نفساً.. دائماً يغالي في أسعار المشروبات ويحاول أن يبتز زبائنه بنعومة وقحة.. نظراته حاقدة.. يشعر أن كل من حوله لا يستحقون إلا معاملته السيئة.. وفي لحظات صراحته يؤكد أنه يكره الناس جميعاً لأنهم أشرار وليس هناك أمان للإنسان..

كانت قناعتي دائماً بأن أكثر الناس شراً هو من يرى العالم خالياً من الخير.. عقدة الإسقاط تسيطر عليهم دائماً.. يسرقون الآخرين ويتعللون بأنهم يستحقون هذا لأنهم لصوص.. ومع ذلك كان بخيت يخضع دائماً أمام الدكتور "عزيز".. ذلك المليونير غريب الأطوار الذي دائماً ما يطلب مشروب "القرفة" ولا يشربه أبداً.. وعندما سألته ذات مرة: أراك تطلب القرفة في كل مرة ولا تشربها أبداً.. فيجيبني: أطلبها لأن الطبيب نصحني بشربها كعلاج للكبد.. فأقول له: فلماذا لا تشربها إذا؟ فيقول: لأنني لا أحبها!!

كنت أتعجب من منطق الغريب.. فهو ينفذ الشطر الأول فقط من نصيحة الطبيب ثم يفعل ما يناسبه هو في الشطر الثاني.. كان الدكتور عزيز الذي لم أعرف يوماً أي نوع من الدكتوراه تلك التي حصل عليها رجلاً متغير الحالات بشكل مدهش.. تراه أحياناً يترك بقشيشاً يساوي ضعف مشروباته وأحياناً أخرى يحاسيهم بالقطارة فلا يترك لهم قرشاً واحداً.. لا يهتم أبداً لهيئته فيبدو بشعره الأبيض الخشن مشعثاً دائماً وذقنه مجذر وثيابه بغير كي.. يلبس حذاءه من دون جوارب يدخل به نصف قدميه ويخرج كعبيه كأنما يقول للدنيا: أنت نعل لا أنتمي إليك ولا أخلعك أيضاً.. أشبه بشخص يعاني مشاكل نفسية.. ومع ذلك يحمل دائماً أحدث الهواتف المحمولة التي كثيراً ما ينساها حيث كان أو تسرق منه.. عزيز كان يمثل "بنك" المقهى الذي يقوم بإقراض كل من يطلب منه دون ضمانات ولا فوائد.. ربما يقرضك عشرة آلاف جنيه دون أن تطلب منه لمجرد أنه لاحظ أنك تعاني ضائقة وهو يقسم بأغلظ الأيمان إنه في

غنى عن المبلغ بل ولا يريد حتى أن ترده إليه.. ثم يأتي في اليوم التالي مباشرة يطالبك برد الدين ويشرد بك أمام الجميع!! كانت تقلباته الحادة تجعلني أعامله بحذر دائماً.. فلا أتحدث معه إلا قليلاً على الرغم من محاولاته الدائمة لمعرفة أخباري.. عزيز كان زبون "بخيت" المفضل.. فعندما نلعب الشطرنج سوياً يأتي بخيت بصوته الرفيع مؤكداً أن الفوز للدكتور عزيز.. ولا يكف عن ضحكه الوقح وصوته المقزز إلا عندما أرميه بنظرة ثاقبة يعلم منها أنه تجاوز حدوده معي.. فينكمش بخزيه بعيداً ينتظر أن يمنحه عزيز أجر نفاقه وتملقه.

أما الحاج "طلبة" تاجر الحلوى فكان رجلاً جاوز السبعين لكنه بصحة جيدة.. كان يحبني جداً ودائماً يناقشني في حال البلد ويردد كلمته المكررة: "دي بلد الكبار والصغار ياكلوا بعض.. يا تاكلهم يا ياكلوك".. يحدثني عن عهد ناصر وكيف كان الشعب مخدوعاً فيه ويترحم على زمن الملكية.. ولذلك كان لا يتفق أبداً مع الحاج "ناصف".. يلعن الساسة والوضع ويشكو لي كساد تجارته.. وكالعادة يتشاجر معه بخيت لأنه يمكث بالساعات دون أن يطلب مشروباً واحداً.. ويؤكد لي: "خسارة فيهم.. اللي يعوزه البيت يحرم علي القهوة".. فكنت أضحك وأقول له: لكن المثل يقول: "يحرم على الجامع".. فيرد بسخريته المعهودة: "أصل أنا كده كده ما بدخلش الجامع".

كان الحاج طلبة يخفف من حدة افتقادي لمحمد على الرغم من أنني كثيراً ما كنت أنزعج من أحاديثه المكررة.. فعندما يبلغ الإنسان أرذل

العمر يفقد القدرة على الشعور بمن يستمع إليه ولا يشعر بمدى ضجره من أحاديثه المملولة.. لكن كان عليّ أن أحتمل حديثه من باب الذوق وأيضاً لأنني أصبحت أكره الانفراد بنفسي.

بين كل هؤلاء الأفراد الذين تتمايز شخصياتهم وتختلف طبائعهم كنت أراقب الجميع بعين طائر يرى رقعة اللعبة من أعلى نقطة دون أن يشارك فيها.. فقط أشاهد كمن يجلس بمسرح للعرائس ترقص وتغني دون إرادة منها.. إنما تهتز مرغمة تحت أصابع ذاك الذي يقف بالأعلى قابضاً على كل الخيوط.. أشاهد.. وأشاهد فقط.

أخيراً انتهى محمد من لقائه علياء وعاد للمقهى.. كنت متلهفًا لمعرفة شعوره وأخشى أن أرى التماعة الحب في عينيه على الرغم من قناعتي بأن هذا هو الوضع المثالي كأفضل تعويض لعلياء عن جرحي لها.. وأيضاً لأن "محمد" كان يحتاج مثل هذا الحب.. لكن نحن لا نستطيع أن نكون على الحياد من أنفسنا دائماً.. وكثيراً ما نفقد القدرة على السيطرة على رغبة الامتلاك وحق تقرير مصائر الآخرين.. سألته:

هل أعجبتك هديتك؟

حليبعاً.. فمن أدري منك بذوقها؟ لكن كانت سعادتها أكبر بالزهور.. كان لها تأثير ساحر عليها. إن فتاة تعشق الزهور هي فتاة لا ترى في الدنيا إلا أروع ما فيها.. فنحن نشبه الأشياء التي نحبها دائماً.. فمن يحبون المال يشبهونه في توحشه وسرعة

زواله.. ومن يحبون الاقتناء لا يتعدون كونهم خزائن تحوي  
التمين وما هي إلا قطعة من الحديد بغير شعور.. أما أولئك  
الذين يحبون الزهور فلديهم قدرة على منح السعادة والحياة  
لغيرهم.. لكن أعمار بهجتهم كأعمار الزهور تكون قصيرة دائمًا.

فقلت له:

صمدقت يا محمد.. لكن أظن أن عمر بهجة علياء سيطول وهي  
بجوارك.

تجهم وجهه:

سماذا تقصد؟!

أنا أرى اقترابك من علياء وهذا لا يزعجني.. فليست ثقتي بأحد  
كعلياء إلا ثقتي بك.. اترك الحب يتخللك.. لا توصل أبوابك في  
وجهه.. صدقتي الحب لا يطرق أبوابنا إلا كنسائم الصيف لا  
تدري من أي الاتجاهات سيأتي وعليك أن تشرع نوافذك له.

لكن أنت تعلم يا عاصم أنها تحبك.

الحب ككل الأشياء في حياتنا يا محمد يمكن أن يقوى ويمكن أن  
يزول أيضًا.. أخبرني ماذا شعورك نحوها؟

لا أنكر أنني أكون سعيداً جداً وأنا معها.. لكن لم أفكر فيما  
تقول.

ليس من الضروري أن تفكر بعقلك.. بعض الأشياء إذا خضعت  
للعقل فسدت وانتهى أمرها.. فالحب شيء من الجنون وإذا  
قررت أن تعقل فيه خسرت حبك.. علينا أحياناً أن نختار أن  
نريح عقولنا أو قلوبنا.. فلا يمكن أن نرضيهما معاً.

فتبسم:

شخصياً أفضل أن أربح قلبي.. فما القيمة أن نحيا مثل الآلات  
والحواسيب؟ سينتهي أمرنا بمجرد فصل التيار الكهربائي ولست  
أحمل بطارية احتياطية.. لكن القلب كالشمس طاقته قد تغيب  
أحياناً لكنها لا تنفد أبداً.. لكن أنا لا أعرف شعور عليها ولا  
يمكنني أن أدفعها في اتجاهي أو أستغل ظرفها الراهن.. ولا أقبل  
أن تقترب نحوي لأنني فقط الرجل الوحيد المتاح.

أحترم وجهة نظرك.. لكن أنت جدير بأن تحبك أي فتاة.. أنت  
شخص نبيل يا محمد وتستحق حباً بحجم نقاء قلبك.

لتكن مشيئة الله يا عاصم.

نعم لتكن مشيئة الله يا صديقي.. لكن أرجوك يا محمد..  
أرجوك أن تتفهم أمراً مهماً.. نحن صديقان وعلياء لم تعد

بالنسبة لي أكثر من أخت.. فمهما حدث بينكما لا تجعل شيئاً  
يؤثر على صداقتنا.

لماذا تقول هذا يا عاصم؟ أنت صديقي الأقرب بل والأوحد  
وليس هناك ما يمكن أن يفصل بيني وبينك.

أتمنى.. أتمنى..

فسألني:

سما رأيك لو جننت معي الأسبوع المقبل إلى نقابة المحامين؟

لماذا؟

ستكون هناك مظاهرة لحركة "كفاية" وأريدك أن تكون معي.

فضحكت:

سمنذ متى وأنت تهتم بالسياسة؟ ما عرفتك إلا تاجرًا ماهرًا وللاعب  
شطرنج.

فأطرق:

وهل إذا ابتعدنا عن السياسة ستبتعد هي عنا؟ حتى متى سنترك  
للآخرين تقرير مصائرنا ومستقبلنا؟ لا بد أن نشارك في صنع  
مستقبل لهذا الوطن ولأنفسنا معه.

صمدقني ستشعر براحة عجيبة حين تأتي لتعلن عن غضبك..  
فليس أقبح من الصمت وأنت تمتلك حق الصراخ.

لكن أخشى أن يكون الأمر مجرد صراخ يا محمد..

هي بداية فقط.. وبعد الصراخ ستتحرك العاصفة.. فتعال  
وشارك معنا.. أنا عضو بالحركة ويمكن أن تصبح أنت أيضاً  
عضواً بها.

سأتي معك.. لكن أمر العضوية لا أظن أنه سيحدث.. فأنا  
أنتمي لحزب أنا كل أعضائه.. أنا من يحدد القرارات وأنا من  
يعارضها أيضاً. على أي حال اتصل بي قبلها لتذكرني فأنا دائم  
النسيان كما تعلم ولا أحب أن تظن أنك أكثر وطنية مني فكما  
أسبقك في الشطرنج سأسبقك في حب هذا الوطن.

أنت فعلاً تسيقني في الحب.. أقصد حب الوطن!!

الأسبوع مرَّ سريعاً.. وكعادة الأيام في حياتي صارت متشابهة.. لا  
يشغلني شيء أكثر من سارة وأخي الذي أصبحت قلقاً عليه غاية القلق..  
ففي كل يوم تزداد عزلته وتساءل حالته النفسية وأنا أقف عاجزاً عن  
إعادته لدائرة الحياة.. أعرف أن ما لاقاه كان مهولاً.. لكن لم أستطع أن  
أقنعه أن دائرة الحياة لا تنتهي وأن الأحوال يمكن أن تتبدل.

وعرضت على أحمد فكرة حضور المظاهرة معنا وكان رده كما توقعت.. أكد أنه لا يهتم بهذا الوطن ولا يعنيه أن يتقدم أو يتأخر وهو يقول:

لولا جحود وطننا لما ذقت هوان الغربية وذل الغرباء.. ولو أنني وجدت الحياة الكريمة في بلدي وبين أهلي ما الذي كان سيضطرنني أن أذهب لبلاد غريبة عني ينظرون لنا كنوع من الخدم.. أغراهم ثراؤهم وفقرنا بأن يستذلونا.. يشعرون بعقدة النقص نحونا.. يزعجهم أن عقولنا أكثر تفتحًا وأننا نملك من القدرات ما لا يمتلكون فيزيدهم هذا توحشًا في إرهابنا بقدر استطاعتهم.. إذا ذهبنا لبلادهم أذلونا وإذا جاءوا لبلادنا أهانونا.. نحن من قدمنا لهم تلك الفرصة وانسحقنا أمام بترولهم وثرواتهم!؟

يا أخي ليس كل العرب كمن قابلت.. كل بلد به الحسن والسيئ.. شخصيًا لي أصدقاء خليجيون يعيشون بمصر لم أرهم بهذا القبح يومًا.. ولا تنسَ أن هناك كثيرًا من المشاريع في مصر كانت بتمويل عربي.. سواء مدينة "الشيخ زايد" أو غيرها.. ناهيك عن دور أثرياء الخليج في مساعدة الجاليات العربية والإسلامية في أوروبا.. فكل المشاريع هناك تقوم على التمويل القادم من الخليج بالأساس سواء من السعودية أو الكويت أو الإمارات أو غيرها.

لكنني لم أرَ إلا الوجه القبيح.. لن أترك قناعاتي التي عرفتها  
بتجربتي من أجل كلامك الذي تتخيله.. ماذا عرفت أنت يا  
عاصم؟ أنت منذ وُلدت تنام ببيت أمك كذلك.. أي من أهوال  
الدنيا قاسيت حتى تتكلم؟ أنت تحلم على فراش دافي فاذهب  
وتظاهر عن وطنك.. أما أنا فلا وطن لي.

لم أكن من ذلك النوع الذي يستسلم سريعاً فألححت عليه  
بالحضور من باب تغيير جو غرفته على الأقل.. وحتى يتخلص مني قال:

سأفكر.. عندما يأتي وقتها أخبرني.. لكن من فضلك اتركني الآن  
فأنا مرهق.

في اليوم التالي اتصل بي محمد ليذكرني بموعد المظاهرة في صباح  
الغد.. وأنه سيمر عليّ بالمنزل ليصطحبني.. فأخبرته أنني ربما آخذ أخي  
أحمد معي وأكدت عليه ألا يناقشه في شيء من أمر سفره؛ لأن هذا  
الموضوع يزعجه للغاية.. فقال: ليس من عاداتي أن أتحدث فيما لا  
يعنيني يا عاصم.. كن جاهزاً عند العاشرة صباحاً لنمضي سريعاً.

جاء محمد في صباح اليوم التالي.. وأقنتع أحمد بالذهاب معنا  
دون كثير مناقشة.. ربما أراد أن يشاهد ما نفع ليقنع نفسه بأنه على  
صواب.. وأنه لا جدوى من مظاهرات ولا غيرها.. فعندما يفقد الإنسان  
الثقة بكل شيء يبحث دائماً عن مبررات تقوي قناعته.

لم أحضر مظاهرة منذ أن كنت في الجامعة.. عندما قامت الانتفاضة الفلسطينية الثانية بعد أن قام شارون باقتحام المسجد الأقصى.. فخرجت مع جموع الطلاب المطالبين بطرد السفير الإسرائيلي وسحب السفير المصري من تل أبيب.. ولكن ليست الأنظمة على اقتناع برؤية الشعوب.. فالوطن ينبج والنظام يسير.. هكذا يعاملونا دائماً!!

وصلنا لموقع المظاهرة.. كان معظمهم بين العشرين والثلاثين.. كنت سعيداً بأن أرى شباب الوطن أصبح مهتمًا بشئونه.. مطالباً بحقوقه.. مئات اللافتات التي تحمل كلمة "كفاية".. كانت الحركة اعتراضاً على كل شيء.. بدءاً من فكرة التوريث التي أصبحت تفرض نفسها بقوة كعدوى انتقلت من سوريا إلى مصر حيث انقلبت الثورات على ذاتها في مسرحية هزلية تدعو للضحك الدامي.. فبعد أن أشبعونا بأغانهم "يوم ما أخرجنا الفساد يوم ما حررنا البلاد" يمتنون علينا بأنهم حررونا من أسر الملكية ومنحونا جمهورية بمذاق الذل تخرس فيها كل الألسنة ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة.. نعم معارك العار.. فلم نشهد لهم إلا الهزائم.. ضاعت الجولان وسقطت سيناء ومُزقت القدس وتم اجتياح بيروت.. أصبح جسد أمتنا متاعاً مباحاً للعدو يفعل فيه ما يشاء.. وما زالوا يرددون زيفهم ويسحرون أعيننا بالعروبة والقومية العربية.. في كل يوم انقلاب يسمونه ثورة.. وسطو مسلح يسمونه تحريراً.. ومات الملك عاش الرئيس.. وهامم اليوم ينقلبون على أنفسهم ويعيدونها ملكية في ثوب جديد ألوانه أشد قبحاً.. ومذاقه أقسى مرارة والأمة تسير كقطيع ترضى بأي راعٍ ما دام يمسك بالعصا الغليظة.

لفت نظري عدد الفتيات الكبير.. كانت المظاهرة فرصة للغضب وفرصة للتعارف بين المتظاهرين أيضًا!! وبعد دقائق من تجمعنا كانت هناك عشرات من المصفحات ومئات الجنود يحيطون بنا (جنود الأمن المركزي) وجوهم تخبر عن شقاء القرى التي جلبوهم منها.. بسطاء لا يعرفون أكثر من إطاعة الأوامر بحذافيرها.. لا يعرفون لماذا نتظاهر ولا يدركون لماذا هم هنا.. كانت عيونهم تخبر عن جوع للكرامة وجوع للجنس أيضًا.. يحدقون في الفتيات اللاتي يرتدين البناتيل "الجينز" ويغمز بعضهم لبعض كأنما يرون نساء لأول مرة في حياتهم.

وبعد ساعة من الوقوف تقدم إلينا ضابط برتبة لواء يطالبنا بفض المظاهرة وإلا فضوها بالقوة.. لم نعبأ بتهديده فقد كان محمد صادقًا.. فالجميع هنا غير مستعد للتنازل عن حق الصياح.. الكل ينادي: "كفاية.. كفاية".. البعض يردد لها لأنه يكره الحكم الجبري.. والبعض يقول كفاية للغلاء.. وآخرون للفساد.. كفاية للظلم.. كفاية لطول سنوات حكم الحزب الواحد.. كفاية للطوارئ التي تعطي الحق للشرطة باعتقالك ستة أشهر دون محاكمة.. ألف كفاية وكفاية نحتاج أن نردها بك يا مصر.. فقد أصبحت حبلى بالألم وحبلى بالجراح.. حان إسقاط جنين السفاح لتتطهر هذه الرحم الطاهرة.

وكنت أراقب أحمد الذي انفعل بجو المظاهرة وأخذ يصرخ بشكل هستيري مرددًا كلمة واحدة: كفاية.. كنت خائفًا عليه غير متوقع لرد فعله.. كان يصرخ بجراحه وخيباته وبأسه.. اصرخ يا أخي فهذا وطنك ابك

له وابك منه.. أخرج غضب صدرك ليطفئ الغضب نار اليأس..  
فالغاضبون يحيون ولليائسين الفناء.

لم يمضِ وقت طويل حتى وُفِّي رجال الأمن بما وعدوا به.. تقدم الجنود نحونا يحملون هراواتهم الغليظة ودروعهم الواقية يقذفون بالقنابل المسيلة للدموع.. القنابل للوطن وللعُدو السلام.. العصا للشعب وللعُدو الابتسام والمصافحة الحارة.. في وطن اختلطت فيه كل الأوراق وأصبح رجال الدين هم رجال النظام وليسوا رجال الله.. يصدرون الفتاوى بجلد الصحفيين لمجرد أنهم قالوا إن رأس النظام مريض فكانت الفتوى بجلدهم.. نعم لأن "الآلهة لا تمرض".. بينما خرست فتاواهم أمام العراق الذي يذبح وأطفال غزة الذين يموتون جوعاً ومسابقات ملكات الجمال وقنوات العهر الإعلامي.. لا بأس عند رجل الدين ما دام رجل النظام قال لا بأس.

الشرطة هي عصا النظام التي يمسكها بشماله.. ورجال الدين هم العصا التي يمسكها بيمينه لتكتمل علينا دائرة الخوف من عقاب الأرض وغضب السماء.. وفي المساحة بين الأرض والسماء تفعل الأنظمة ما تشاء.

انهالوا علينا كذئاب تسحق القطيع المسالم.. البعض جرى والبعض ثبت في مكانه.. لا فرق عندهم بين رجل وفتاة.. فما دمت اعترضت فستلقى مصيرك على حد المفصلة. كثيرون سقطوا مغشياً

عليهم من أثر دخان القنابل.. والبعض غاص في دمائه تحت ضرب  
الهروات الغليظة.. واشتبكت أنا مع أقرب جندي لي.

ووسط الزحام والهرج وفوضى الوطن الحبيس.. رأيت أخي أحمد  
ما زال واقفاً يردد صرخته "كفاية" حتى أحاط به عدد من الجنود انهالوا  
عليه بالعصي والدروع.. وسقط بينهم وسقطت أنا أيضاً مغشياً عليّ بعد  
ضربة قوية على رأسي. حملني بعض الهاربين معهم.. الكل إما مصاب  
هارب وإما مصاب معتقل.. حتى الفتيات الضعاف لم يرحم الجنود  
أنوثهن.. تمزقت الثياب وتعرى جسد الوطن.. لا أدري هل كانوا يضربون  
فقط أم أن هناك اغتصاباً أيضاً.. لا بأس.. فما القضية أن يغتصبوا  
الأجساد بعدما اغتصبوا حريتنا وكرامتنا وصوتنا؟! كان لا يرضيهم إلا  
صمت القطيع!!

علمت أن أحمد قد تم اقتياده لقسم الشرطة.. اعتقلوه مع عدد  
كبير.. لم أكن أدري كيف سأواجه أمي باعتقال أحمد.. أصبحت مسئولاً  
في البيت حتى عن أخي الأكبر! لم يكن من الممكن إقناعها بأنني كنت أريد  
له الخير فلم أكن أتوقع أن يحدث هذا في مظاهرة سلمية.. كل ما يفعله  
المتظاهرون هو الوقوف على الرصيف ورفع اللافتات.. لكن هذا ممنوع..  
نعم ممنوع أن نلفت انتباههم.. مرفوض أن تحمل مرآة يرون بها  
حقيقتهم.. إنهم يكرهون أن يروا وجوههم الدميمة وملامحهم القاسية  
الغليظة في مرايا الغاضبين.

أخذت محامياً وذهبتنا لقسم الشرطة.. فرفض الضابط حضور المحامي في أثناء التحقيق.. فقلت له:

هذا ضد القانون.

رد بصلف:

نحن القانون! اذهبوا للقضاء ليحقق لكم القانون.. أما هنا فلا قانون إلا الذي نحدد.. لن تروا أي سجين حتى ننتهي من التحقيق.

وعرفت بعد ذلك أنه تحقيق مع الجسد.. أسئلة بمذاق السياط وكلمات بصوت الصعق الكهربائي! رباه.. كيف فعلت هذا بأخي المسكين؟ هل قدرك العذاب يا أحمد حيث نزلت قدمك؟ لكن هذه المرة أنا الذي قدمتك للمذبح الجديد.. مذبح له لون الوطن.. لكن ليس له قلب الوطن الطيب.

مرت أسابيع وأنا أطرق كل الأبواب.. أكاد أموت كمدًا على أخي.. وأخيرًا جاء أحمد.. أفرجوا عنه في الثالثة فجرًا ليسير لمدة ثلاث ساعات على قدميه وهو يحمل جسده الذي ذاق العذاب.. فتحت له فكان كشيخ يقف أمامي.. عيناه تائهتان.. لم ينطق بكلمة.. اتجه إلى غرفته مباشرة.. دخلت أمني تحتضنه وتبكي وهو بين يديها كدمية لا تعرف الحزن ولا الفرح.. ذاهل عن كل ما حوله.. ساعدته في خلع ملابسه التي كان بها منذ أسابيع وهو كرضيع لا يساعدي ولا يقاومني.. ونام على سريره كأبأس

إنسان فوق ظهر الأرض.. أردت أن يخرج جراحه في حضن الوطن فوضع  
الوطن خنجرًا في جرحه المفتوح.

أصبح أحمد أكثر صمًا وامتنع عن تناول أي طعام حتى  
اضطرت إلى نقله للمشفى لوضع محاليل تمكنه من مواصلة الحياة..  
وهو مستسلم تمامًا لكل من حوله.. أغلق عليه ذاته.. عيناه كنافذة  
ضبابية لا يرى من بداخلها ما يدور في الخارج.. ولا يدري من الخارج عن  
أسرارها شيئًا.. أردت أن أنفث الحياة بروحه المثقلة بالجراح فقذفت به  
في بئر الموت وكهف الظلام.. تحسنت صحته قليلاً أخيرًا وقال لي: أريد أن  
أعود للمنزل.. فاستشرت الطبيب فقال: لا بأس.. لكن اهتموا بغذائه..  
والأفضل أن تذهبوا به لأي مكان بعيد عن القاهرة لتتحسن حالته  
النفسية.

كان الوقت ليلاً.. ذهبت لأحضر سيارتي لنرجع للبيت. شدني من

ذراعي:

أريد أن أتمشى على النيل.

فقلت:

هذا أفضل.. أنا أيضًا أريد أن أستنشق هواءً نقيًا.

في أثناء السير قلت له:

-سامحني يا أحمد.. أنا من فعلت هذا بك عندما طالبتك بأن  
تأتي معنا..

فنظر لي ولم يرد بنصف كلمة.. فمشيت بجواره صامتاً.. فوق كوبري  
قصر النيل وقف محملاً في الماء وأنا بجواره أضع يدي على رأسه وأحرك  
أصابعي بخصلاته كما كانت تفعل أُمي:

هَمَّونَ عليك يا أخي.. هذا قضاء الله وتلك ضريبة لا بد أن يدفعها  
كل من يريد لبلده أن يتحرر.

لم يرد أيضاً وصمت لفترة ثم قال:

همل تؤمن بالقضاء يا عاصم؟

طبعاً.. فكل شيء بإرادة الله.

وهل الموت بإرادة الله أم بإرادتنا؟

الأعمار بيد الله يا أخي.. ماذا تريد أن تقول؟ لا تقلقي عليك  
أكثر من ذلك.. أنا مثلك متعب أكاد أن أنهار.. أتماسك فقط  
رحمةً بأمك.. حاول أن تنسى يا أحمد.

فأكمل كلامه دون أن ينظر لي:

لكن إذا عجزنا عن حرية الحياة فلن نعجز عن حرية الموت.

وقبل أن أفكر في جملته ففز واقفًا فوق السور فارتج قلبي وأمسكت به  
من قدمه:

ماذا تفعل يا أحمد؟

أفعل ما أريد.. فقد سحقتني بما أرادوا لي.. ذبحوا زوجتي وابني  
في العراق وعذبوني في مصر.. سأحرمهم من لذة عذابي ومنتعة  
قهرهم لي.. سأحرمهم من هذا الجسد الذي أصبح ملهاتهم وتلك  
الروح التي زرعوا بها كل سمومهم.. سأترك لهم غابتهم.. لن  
أعيش ذنبًا بين الذئاب فأعوي ولا نعجة فيأكلوني.

أحمد.. أستحلفك بالله.. انزل.. إن لم تحي لأجل نفسك فلأجل  
أمك التي انتظرت عودتك سنين.. هل جئت لتحرق قلبها بموتك  
هنا؟

فنظر في عيني:

أمي.. قل لها إن أحمد متعب ويريد أن ينام.. قل لها إن أحمد  
يحبك.. وقل لها أن تغفر لي.

قبل أن أجذبه ألقى بنفسه.. سقط أمامي.. غرق تحت عيني.. أرى  
جسده المعذب وهو يختفي تحت النهر الذي يبتلع همومنا وآمالنا والآن  
يبتلع أجسادنا أيضًا.. أصرخ: أحمد.. لا تمُت.. أحمد..

لكن انتهى وقت النداء ومضى زمن الرجاء وحل الموت والخراب..  
ابكِ أيها القلب على أخيك الذي جاء ليموت بين يديك.. عجزت يداي أن  
تشدها من بين مخالب الموت.. فحمل سره إلى الماء.. حمل جراحه وذهب  
لزوجته المقتولة وولده المذبوح.. هزموا أحلامه البريئة وحطموا آماله  
البسيطة.. حرمتك الأوطان يا أحمد وسليتك كل ما كان لك وألقت بك  
في موقد العذاب. أطفئ أيها النيل جحيم أخي.. داو أيها النهر جراحه.. كن  
رفيقًا به أيها الموت فلم يلقَ في وطنه إلا العذاب.. فماذا سيلقى في قبر  
الماء؟ يا إلهي اقبض روحي.. انزع قلبي من صدري.. فقد فاضت سيول  
الأحزان وأغرقت زهور الأمل وبراعم الرجاء.. ابكي يا أمي على ولدك  
المسكين.. قذفته الحياة إليك ليختطفه الموت من بين أحضانك.. ذوقِي يا  
أمي مرارة الحسرة.. كلنا ضحايا الوطن.. وأنت أيها الوطن ضحية من؟!

جريت كالمجنون في كل اتجاه.. وهممت أن أقذف بنفسي خلفه  
لأشاركه موته عندما عجزت عن مشاركته حزنه.. لألقى مصيره البائس  
ونهايته المذبوحة بسكين الوطن.. لكن أحاط بي جمع من الناس الذين  
هرعوا إثر صراخي وجذبوني.. بعضهم أمسك يدي وآخرون يكبلون قدمي  
وأنا أنادي على أخي الذي لن يعود.

جاءت سيارة الشرطة وطالبوني بأن أذهب معهم لأدلي بما حدث  
فبصقت في وجوههم.. أنتم من قتلتموه.. أنتم من ذبحتموه.. فقيدوني  
وحملوني قسرًا إلى السيارة وأنا في الزنزانة ما زلت أصرخ: يا قتلة الوطن  
أعيدوا أحمد.. أحيوه كما قتلتموه.. حضر بعدها محمد ليخرجني من

السجين مصطحبًا صديقنا المحامي حسن.. تم تحرير محضر تعدي على السلطات وسب رجال الشرطة في أثناء العمل.. وأنا من يحرر لي محضري ضدكم؟ من يقاضيكم بتهمة التعدي على الوطن وإهانة الأمل؟!!

دفع محمد الكفالة ورجعت إلى البيت لأجد أمي بين الحياة والموت وحولها كثير من النسوة يذكرنها بأن النبي - صلي الله عليه وسلم - قد مات وأن الموت حق علينا.. صوت القرآن يتردد في أركان البيت يصاحبه صوت الألم.. الشيخ يقرأ آيات الرحمة.. والوطن يتلو آيات العذاب.

ارتميت في حضن أمي.. ليس غيرنا هنا يشعر بمرارة الجراح.. ليس غيري وغيرها يدرك حجم المصيبة.. وحدنا نعلم من كان أحمد الذي لم يسيئ لأي إنسان وكانت حياته من أجل أسرته.. سفره كان بهدف إرسال المال لنا.. من أجلنا عاش ومن أجل من قد مات؟ أحمد الطيب الوديع ذو القلب الرحيم قد فقدناه ولن تغيننا دموع المجاملات وصراخ الراء من حولنا.. ليس غيرنا يدرك ثمن فاتورة الموت.. فلن يدرك أحد حزن "يعقوب" إلا إذا شاهد جمال "يوسف".

أخذت أبكي حتى شعرت أن روحي ستخرج.. وأمي تهددني وهي تقول: كفاني أخوك يا عاصم.. لا تحرق قلبي عليك أنت أيضًا "ما بقاش في قلبي مكان للحزن.. ارحم أمك ما بقاليش غيرك يابني".

بعد أيام حضرت أختي أحلام وزوجها من السعودية لتشاركنا مأدبة الألم وتنال قسطها من العذاب.. أخبرني زوجها بأنه أخذ إجازة لمدة

أسبوع واحد وسيعودان إلى السعودية بعده.. وعرض عليّ أن يصطحب أمي معهما لتعيش في مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث يعمل مدرّسًا هناك.. أخبرته أنني موافق.. لكن لا أعرف رأي أمي في الأمر. رفضت أمي العرض: لن أتركك وحدك.. هل كلما جاء ولد ذهب آخر؟ لا.. سنكون سويًا. ألححت عليها أن تذهب لتعتمر وتزور قبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وعدتها أنني سأكون بخير.. بعد حوار طويل اقتنعت.

نعم يا عاصم.. سأذهب للرسول - صلى الله عليه وسلم - لأشكو له ما فعلوه بأولادي.. سأمسك نافذة قبره وأناديه: انظر ماذا فعلت بنا أمتك يا نبي الرحمة! نسوا وصاياك وعذبوا ولدي من غير أن يقترب ذنبًا.

سعدت باقتناعها حتى لا تعذبها رؤية حجرة أحمد التي صارت جدرانها تشاركنا الأحزان وسريره الذي يفتقد صاحبه.. أسمع في الليل صوت بكاء طفل يأتي من حجرة أحمد فأذهب لأرى الأمر فلا أجد شيئًا.. تكرر الأمر كثيرًا بعد سفر أمي حتى شعرت أنني سأفقد عقلي. ترى من هذا الذي يبكي؟ هل هو من صنع أوهامي أم أن روح أحمد البرينة جاءت إلى سريره لتبكي مصيره الأليم.

أصبحت وحيدًا في البيت تلتهمني وحدتي وتسحقني ذكرياتي.. يمر شريط أسود أمام عيني تكسوه بقع حمراء.. بقع من دم أخي ومن دمي ودمك يا مصر.. تأمر عليّ الماضي والحاضر فأحكمت الدائرة.. دائرة العذاب.. أحياء بين قوسين من فولاذ حمته نار السعير.. فإذا هربت من الماضي سحقني الحاضر.. والمستقبل تائه بينهما.. أتساءل: هل هناك ما

يستحق هذا الثمن كله؟ أي نهاية وأي مصير ينتظراني عند نهاية الطريق؟ ذاك الطريق المظلم الذي غطت الأشواك أرضه وتراقصت الشياطين والأشباح في أفقه.. نفق مظلم أزحف فيه ببطء أبحث عن مخرج الأمل وطاقة الرجاء لكن غابت الأنوار كلها.. ولا يحدوني إلا صوت الأنين يقودني من حفرة لحفرة ومن ضربة لضربة.. اصرخي يا روح أحمد وابكي كيف شئت فإن يدي عاجزة عن كفكفة دموعك.. انفخي أيها الروح المعذبة في أبواق الألم فقد امتلأت الكأس وأدمنت نفسي عزف الجراح.. لماذا تعذبني أيها الغارق تحت الماء وأنا أطفو على وجه السعير لأحترق بموتك؟ أنا لم أقتلك يا ابن أُمي.. إنما قتلك سجان الوطن.. فلماذا تبعث روحك لتعذبني ببكائها؟ جدير بك أن تبعثها لمن عذبوك وعذبوني وعذبوا مصر قبلنا.

جاء محمد وعلياء يقديمان واجب العزاء وفي إثرهما فوجئت بقدوم سارة أيضًا. جلس الثلاثة حولي.. الحب الذي رفضته والحب الذي رفضني وصديقي بينهما. عرض محمد أن أذهب لأعيش معه في بيته يسلي بعضنا بعضًا.. وأخذت علياء وسارة تقنعاني بالأمر.. سارة لا تعرف أن علياء كانت حبيبتي من قبلها وعلياء لا تدري أن تلك الجالسة هي من نسلتني من بين يديها. الآن يجلس أمامي الماضي الذي رفضته والمستقبل الذي يهرب مني.. كلاهما اجتمع في لحظة الموت وسرادق العزاء.. هكذا لا تجتمع الأمنيات إلا في لحظة الرحيل وساعة الزهد في الحياة.. الكف التي سحبت يدي من بين أناملها والكف التي توارت عني.. لأقف بينهما على الجسر.. بين جنة تركتها وجحيم بخل عليّ حتى بلفح النار.. بعين ذاهلة

أقف على الجسر الصامت.. تحت البرد والظلام أقف ذاهلاً عن نهاية  
المصير.. رفضت العرض وقلت لهم سأذهب إلى شقتنا بالإسكندرية.. فأنا  
أحتاج لتغيير الجو.. البحر سيغسل همومي.

رحبوا بالفكرة وحزمت حقيبتي وسافرت في بداية مارس.. أقضي  
النهار في النوم والليل أفضيه بين يدي البحر.. لا أدري أينما كان أكثر  
صخباً: صوت الحزن بداخلي أم صوت الموج بداخله.. نحن بحور صغيرة  
تحبسنا شيطان الجسد مهما علا الموج ليضرب صخر الشواطئ يعود  
أدراجه أسير الماء.. اغسل أيها البحر حزني بيدك المالحة ورياحك  
الهائجة!

رجعت لشقتي بعدما لفحني البحر بمزيد من أسراره.. فلسنا  
وحدنا الأسرى في هذا الوجود. استلقيت على سريري.. غادرت القاهرة  
لكنها ترفض أن تغادرنى.. هاهي تطاردني بالأمها.. يتراءى لي خيال أخي  
أحمد كلما التفتُ ذات اليمين.. ويتراءى لي عذاب الوطن كلما نظرت  
صوب الشمال.. البكاء عاد من جديد.. يبدو أن روح أحمد ما زالت  
مصرّة على إحاطتي بجراحه.

أسمع صراخ الطفل أكثر نحيباً وأعلى صوتاً.. أشعر أنني على  
شفا الجنون.. قمت لأفتش الحجرات وكلما فتحت باباً سمعت البكاء  
يأتي من خلف باب آخر.. فالبكاء ينتظرنا خلف الأبواب كلها.. كثيرة هي  
الأرواح الباكيات في وطني.. فلمن هذا الصوت يا مصر؟ أي ضحاياك هذا

الذي جاءت روحه تبكي خلف أبواي؟ هل هي روحك يا أحمد ما زالت  
تناديني للثأر؟

لتسكن روحك يا أخي.. فممن تريدني أن أنتقم: من الجنود  
البسطاء الذين عذبوك بأمر قادتهم.. أم ممن عذبوك في العراق.. أم  
أنتقم من مصر التي لم تجني شيئاً وإنما جنى عليها أبنائها الصامتون؟

هل هذا نواح الأرواح المعذبة تطلب الراحة الأبدية بسحق  
الظالمين.. أم أنها تبكي علينا نحن السجناء بين الأرض والسماء؟ الأموات  
نالوا راحتهم.. على الأقل لم يعد هناك من يقتادهم بغير جريرة.. وليس  
هناك من يجلدهم لأنهم قالوا للطاغية "لا". وحدنا نحن الأحياء في هذا  
الوطن لا نزال نتجرع كأس المذلة.. تعربد القيود على معصم العجز  
فينا.. فلتمضي أيتها الروح الباكية بعيداً حتى لو كنتِ روح أخي أو روح  
الوطن أو حتى روح الشيطان.

اصمتي أيتها الروح.. فما عاد في قلبي موطن يحتمل الألم.

قررت أن أعود إلى البحر مرة أخرى.. وفي الطريق وجدتني أقف  
أمام حانة اسمها "دون كيشوت".. ترددت لدقائق ثم قررت الدخول.. أنا  
لم أشرب الخمر مطلقاً في حياتي.. لكن هذا وقت السكر.. فمن أكثر مني  
جراحاً؟ ومن أحق مني بنسيان له مذاق الخمر؟

لا أدري لماذا كان اسمها "دون كيشوت".. ذاك النبيل المجنون.. لا  
بأس.. فكلنا دون كيشوت.. بعضنا يقاتل طواحين الهواء وبعضنا يقاتل

طواحين الوطن.. فها هنا إما أن تكون منافقًا سعيدًا وإما أن تكون نبيلًا  
مجنونًا!!

وقفت أمام النادل:

ماذا تقدمون؟

اطلب ما تشاء ستجده.

ألجمتني الحيرة.. فأنا لا أعرف أيًا من أسماء الخمور.. اللهم إلا ما أسمع  
في أفلامنا التي تقدم البطل دائمًا بين الكأس والغانية.. ويسكي أو  
شامبانيا..

أي شيء.. أليست كلها خمورًا؟

نظر النادل بريبة ويبدو أنه أدرك أنها المرة الأولى التي أحتسي فيها خمرًا:

مما رأيك أن تشرب شيئًا من اختياري سينسيك كل همومك؟

أربكتني كلمته.. من أين عرف أنني مهموم؟ هل ملامحي تفضحني إلى هذا  
الحد.. أم لأن كل من يحيا هنا لا بد أن يناله نصيبه من الهم؟

ابتسمت راضيًا عن اقتراحه.. جلست على كرسي مرتفع في مقابل  
البار.. وبعد دقائق قدم لي كأسًا من نبيذ أحمر رفعته لتمي مترددًا.. فما  
زال يصرخ في صدري صوت الحلال والحرام.. لكن الألم كان أعلى صوتًا..  
فرفعت الكأس لتمي جرعتها على مرة واحدة حتى لا أشعر بمرارتها..

وأخبرني النادل بثقة خبير: ستشعر مذاقها مرًا في البداية لكن ستسري  
النشوة بعد ذلك في بدنك كله.. وقدم لي كأسًا في إثر كأس حتى دار رأسي  
وتداخلت الرؤى أمام عيني.. أضحك تارة بصوت مرتفع وأجهش بالبكاء  
تارة أخرى.. وبينما يشتد الخدر في جسدي وتتراقص الخيالات أمامي  
رأيت "شيخًا كبيرًا" يجلس أمامي لا أدري من أين جاء ومتى ظهر. فجأة  
اختفى كل ما حو لي.. غاب النادل عن نظري والسكراري الذين يعج بهم  
المكان.. وخفت صوت الموسيقى الصاخبة.. ونظر الرجل في عمق عيني  
وهو صامت لا ينطق بكلمة.. رجل له ملامح غريبة لا تشبه ملامح الناس..  
عيناه لهما لون النهر الحزين.. ووجهه تعلوه الكبرياء.. ثوبه رث مهترئ لا  
يناسب طلعه الوقورة المهابة.. لحيته بيضاء طويلة تصل إلى منتصف  
صدره.. ويتدل شعره منسبًا له بياض الثلج. وضع يده على كتفي فسرى  
برد أصابعه الطويلة في أعصابي وأرعبتني نظرتة المتقدمة بالغضب ثم  
هزني هزة عنيفة.. وقال:

تكلم.

قلت له:

ماذا أقول؟

فهزني ثانية:

تكلم.

ماذا أقول؟

فكانت هزته الثالثة أشد قسوة:

تكلم أيها البائس.. ماذا أصابك وألقى بك في بئر اليأس؟

مصاب أنا بجرح وطني الذي لا يطيب أبدًا.

ألست طبيب الجراح؟

نعم.

فانهض يا ولد داو جرح نفسك لتقوم قوياً لمداواة جرح الوطن.

ضحكت ساخراً:

كيف أداويه وهو من ذبحني؟

فاشتعلت النار بين عينيه وصاح بصوت راعد:

الوطن لا يد له ليذبح.. أنتم الوطن.. فإذا سقطتم في يأسكم

فماذا يبقى غير الصخور والتراب؟ النهر لا قيمة له إلا بمن

يحيه بساتين تطعم الإنسان وتنوي الطير.. والشمس ماذا

تصنع لو سطعت على عيون العماة؟ الصخر لا يصنع الرجال

ولكن يصنع الرجال منه الحياة.. انهض وآمن بنفسك لتخرج

وطنك من سجنه الكبير.. قم أيها السكران فلم يأت وقت

البكاء.. اصنع التاريخ وانتصر في معركة الحياة.. وعندما تجوز  
الجسر بين اليأس والرجاء وتحوز النصر الموعود ساعتها  
ستجد وقتاً لتبكي كل الجراح.

فقدت يده عن كتفي:

أذهب عني أيها الشيخ الشاحب فإني ميت.. هل سمعت يوماً أن  
الأموات يصنعون الحياة؟ فإذهب أنت ودافع عن الوطن الذي  
ترجو.

أيها الضعيف.. إن الوطن لا يدافع عن نفسه إنما يدافع عنه  
أبناؤه.

فقهت:

فإذهب إذًا أيها الابن البار ودافع عن وطنك!!

فقام ناهضاً يتطاير دخان أبيض من شعره الطويل وتشتعل عيناه بلون  
السحاب الأحمر في ليلة رعد غاضبة وصاح بصوت زلزلي:

أتسخر من وطنك أيها العاق؟

من أنت أيها الرجل؟

طرح عباءته عن جسد مزقته الضربات.. طعنات فساد.. وسياط ظلم..  
وجراح كبرياء.. جسده خارطة وطن مكلم.. وقال:

أنا الوطن.. أنا الوطن.. أنا الوطن.. فقم وحرر يدي ممن  
قيدونني.

نظرت في عينيه الطيبتين على الرغم من الغضب.. وسرى صوته  
في عمق روحي.. ثم تذكرت أخي الغريق وأمي الغائبة وسارة البعيدة..  
فطأطأت رأسي وارتخت أناملتي وخبنت عزيمتي.. فأمسكت بزجاجة النبيذ  
وصببت كأسين وضربت كأسًا بكأس ورفعت له أحدهما:  
اشرب معي إذًا.. في صحتك يا وطن.

فهز رأسه في ألم وخيبة رجاء.. وألقى بالكأس على الأرض وهو  
يردد:

إذًا سيطول أسري وتطول غربتي.. ثم اختفى فجأة كما ظهر  
فجأة.

لا أدري هل كان هذا واقعًا؟ هل قابلت الوطن وجهًا لوجه.. أم أن  
الخمير قد فعلت بي أفعالها؟ لا أذكر ماذا حدث بعد ذلك.. فلم أفق إلا  
وأنا ملقى على الرصيف المقابل للحنانة تلسعني أشعة الشمس وحوالي  
أطفال حفاة ينظرون لي ويتضحكون مني.

رجعت لشقتي وما زال الصوت يتردد صدهاء في أذني: أنا الوطن.. أنا  
الوطن.. فأضحك من هذياني وأنا أردد: في صحتك يا وطن.. ولم ينقذني  
من هذا الهذيان إلا هاتف سارة عندما اتصلت بي.

مرت خمسة شهور وأنا هناك.. كانت سارة تتصل بي يوميًا.. لا أدري هل بدافع من شفقتها أم بدافع من شوقها.. وأيًا ما كان الأمر.. كانت سارة الشيء الوحيد الذي يمنحني السعادة.. وكان صوتها هو الحبل السري الذي يربطني بالحياة. وفي منتصف أغسطس قالت:

سمشاقة أن أراك يا عاصم.. إما أن تحضر إلى القاهرة وإما سأحضر إليك لألقي عليك القبض متهمًا بجنحة تهرب صحفي.

فضحكت:

إذًا فإنني أعترف بجريمتي وعليك أن تعنقليني فورًا.. سأحزم حقائبي وأعود إلى القاهرة في غضون يومين علي الأكثر.

سأكون في انتظارك.. فلا تتأخر أكثر من ذلك.

كان اقتراب سارة مني في الشهور الخمسة دافعًا جديدًا للحياة.. أصبحت هي كل همي والشيء الوحيد الذي يخفف من ألم الوحشة والوحدة.. كنا نلتقي كثيرًا لكن لم أعد أخبرها بحبي.. فقط يكفيني أن أراها وأحادثها. وذات لقاء سألتها:

سارة.. أنت لم تكلمي لي قصتك ولم تخبريني لماذا تركت الرجل الذي أحببته بعد أن أصبحت حاملاً منه؟

فابتسمت:

تأخر سؤالك كثيرًا يا عاصم.. كنت أتوقعه في كل لقاء.. لكن أنت رجل صعب المراس.

أنا أكره الأسئلة المباشرة.. ولا أحب أن أهاجمك بسؤال قد يقيدك بالخجل أو يضطرك للكذب.

لا هذا ولا ذاك.. فأنت أصبحت أقرب شخص لي ولا أخجل من سرد أسراري بين يديك.. فليس لي صديق أقرب منك يا عاصم.. أنا لم أخبرك ليس لعدم ثقتي بك ولكن لأن هذا الأمر يدمي قلبي ولا أريد أن أتذكر تلك الليلة السوداء التي فقدته فيها للأبد.. كان حملي سببًا جديدًا لمنحي مزيدًا من الحب.. وكان يعد الأيام في انتظار طفل يحمل اسمه وطالبي بأن أخبر أمي بأمزواجنا في أقرب فرصة.. وقال: سأقيم لك فرحًا يليق بحيي لك يا حبيبتي وأم طفلي.. كان كل شيء يسير بيننا بشكل جيد.. كلما مر يومٌ أصبح أكثر سعادة لاقترب نزول ذلك الضيف المنتظر لأمنحه الولد الذي عجزت زوجته عن أن تمنحه إياه لأنها كانت امرأة عاقراً.. كنت أشعر أنني سأنتصر عليهما بهذا الطفل.. كنت أغار من أثر عطرها على جسده ومن ترديد اسمها على شفثيه.. كان كل ما لي ولم أرض إلا أن أكون أيضًا كل ما يشغله.. فليس شيء أصعب على امرأة من وجود أخرى في دائرة رجلها.. الحب شهوة مثقلة بحق الامتلاك.. ليس الرجل وحده من يمارس شرفيته في هذا.. وكانت المفاجأة التي عصفت بقلبي وأحرقت أجنحة فرحتي الوليدة.. عدت إلى شقتنا ذات صباح لأنني لم أكن أمكث بها في الليل حتى لا تشك أمي في الأمر.. فقد كان لي النهار

ولليل الأشواق والحرمان. ذهبت إلى الشقة لانتظره فانقبض صدري أول ما دخلت.. وشعرت أن الجدران تخبرني أن أمراً حدث هنا في الليل.. اتجهت إلى غرفة النوم مباشرة.. أتشمم شراشف السرير.. أبحث عن ذلك الخيط الأسود الذي يناديني.. فوجدت عطراً ليس عطري ولا هو عطره.. وقطعاً لم يكن عطر زوجته أيضاً.. تلاحقت ضربات قلبي واضطربت أنفاسي.. وعندما رفعت وسادة السرير رأيت دليل الخيانة.. رأيت الخنجر الذي طعن قلبي. كانت تحتها صدرية سوداء رفعتها لأنفي كانت تختلط بعطره وذاك العطر الدخيل علي سريري. جلست صامتة.. غابت الدموع عن عيني وعربد الألم على صدري وأنا أردد كالمجنونة: لماذا؟ لماذا؟ جاء في مواعده المعتاد بعد الظهر.. فالتزمت الصمت.. وأعددت له الغداء وهو ينظر لي من طرف خفي يتساءل:

«ما بك يا سارة؟ هل حدث شيء؟»

«ليس بي شيء.. لماذا تسأل؟ هل هناك ما يزعجك؟»

«لا.. فقط أريد أن أطمئن عليك.. ولا أدري.. أشعر أنك على غير عادتك.»

«أنا لا أغير عاداتي.. فهل تغيرها أنت يا زوجي المخلص؟!»

وقعت الكلمة عليه كالماء البارد في جوف الشتاء فنهضت وألقيت بالصدرية بين يديه:

هل اشتريت هذه لي أم أن أحدهم أهداك إياها؟

أريكته المفاجأة وامتنع لونه بلون الصدرية التي بين يديه وتحدث  
مرتجفاً:

سأفهمك كل ما حدث.. لكن أرجوك أعطني فرصة ولا تتسرعني  
بالحكم.

أخبرني أولاً لمن هذه؟ أخبرني فوراً قبل أن تقول أي مبررات.  
سأعيني أشرح لك.

لمن هذه؟ لن أسمع أي شيء قبل أن تخبرني من هذه التي حملتها  
لسريري بالأمس.

فرد بصوت خفيض يملؤه الخزي:

إنها لريهام.

ريهام من؟ ريهام التي تعرفت عليك في حفل زفافها أم ريهام  
أخرى؟

لا.. بل هي ريهام صديقتك.

كيف؟ ريهام متزوجة.. مستحيل أن تخونني مع أقرب صديقاتي..  
أليس زوجها صديقك وشريكك في العمل؟ أي نوع من الرجال

أنت؟ وأي حِيَّة من النساء هي؟ هل كنت عمياء عن رؤية  
حقيقتك طيلة هذه السنين؟

فرقع بين يدي يقبل يدي وقدمي وهو يبكي:

أرجوكِ سامحيني.. أقسم لكِ لم أْخُنك قط.. كانت المرة الأولى..  
لست خائناً لحبك يا سارة.

كم مرة تكفي؟ وكم امرأة تريد حتى تصبح خائناً؟ أنت بطل من  
ورق ورجل من خيال.. أنت وهم صنعته بنفسه ودفعت ثمنه  
باهظاً جداً.. طلقني فوراً أيها الجبان.. لا أستطيع أن أنظر في  
وجهك.. أنا أحتقرك من كل قلبي.

أرجوكِ اغفري لي من أجل طفلي الذي بين أحشائك.

وما أدراك أنه ولدك؟

فوضع يده على فمي:

لا تقولي هذا يا سارة.. هذا مستحيل.. أرجوكِ لا تقولي هذا.

نعم مستحيل.. لأنني لست مثلك ولن يشرفني أن تكون والدًا  
لطفلي.

تركت الشقة وعدت لبيت أمي.. أغلقت حجرتي على نفسي لأيام لا أدري كم عددها.. وأغلقت هاتفي.. كنت لا أريد أن أرى أو أسمع أي إنسان.. فكرت كثيرًا كيف أحرق قلبه كما أحرق قلبي.. كيف أذيقه من كأس الألم التي قدمها لي.. وقررت أن أتخلص من الجنين.. فلم يكن هناك من شيء يسعد قلبه أكثر من هذا الطفل.. سأقتله لأقتل فرحته وأقضي على أمه.. وأجريت عملية الإجهاض ثم اتصلت به ليحضر إلى العيادة.. فجاء سريعًا يغمره القلق:

ماذا حدث يا سارة؟ أي مكروه أصابك؟

فاعتدلت أستجمع قوتي المنهارة كسديّ يقاوم فيض الألم الممض يسحقه طوفان الترف :

أنت المكروه الذي أصابني والمرض الذي هدني.. لم أتصل بك لتشاركني ضعفي ولكن لتحمل جثة طفلك.. فلن أقبل أن ينمو جسدي على شيء منك.

أذهلته الصاعقة وصرخ في الطبيعة: ماذا فعلت؟ هل اجهضتها؟ قتلتهم ولدي يا قساة القلوب.. هل هذا ردك يا سارة؟ هل هذا حبك أيهما الظالمة؟ كان ألمه يشعرني بلذة الانتصار ونشوة الانتقام.. وفي الوقت ذاته كنت أتمزق من داخلي.. فلم أحب أحدًا كما أحبته.. كانت دموعه تحييني وتقتلني.. تسعدني وتمزق قلبي في الوقت ذاته.. فالخيانة تشوه أرواحنا وتجعلنا مسوخًا نعيش بين سكرة الضحك ورجفة البكاء..

انقطعت أخباره عني لشهور.. وعلمت بعد ذلك أنه عاد إلى لندن.. أعادت الأيام الصواب إلى عقلي وأخذت أفكر في كل ما حدث.. فقد كانت ربهام من ذلك النوع الذي يرغب في امتلاك كل شيء.. لا بد أنها هي من غررت به.. كان يجب أن أستمع لدفاعه وأن أحتمل طعنته من أجل حبنا وطفلنا.. أرسلت له عشرات الرسائل وحاولت أن أطرق كل أبوابه.. لكنه لم يرد على أي من رسائلي.. كل يوم يمر كنت أزداد ألمًا.. وقررت أن أسافر إليه.

كنت أرجو استعادته بأي ثمن.. وبالفعل سافرت وقابلته فأخبرني أنه صَفَّى كل أعماله في القاهرة وطلق زوجته.. كان يعيش كراهب في بلاد المغرب.. ضعفت صحته وأصبح كعجوز في الثمانين وليس كرجل لم يبلغ الخامسة والأربعين.. صار مدمنًا للخمر لا يكاد يفيق حتى يعود لسكره.. رجوته أن يعود لنتزوج مرة أخرى.. أقسمت له أنني نسيت خيانتك لي وغفرت له.. فقال: لكني لم أنس خيانتك لحلمي ولن أغفر لك. ارجعي من حيث أتيت.. لا أطيق أن أرى وجهك.. دم طفلي ما زال على يديك أسمع صراخه داخل رحمك التي قذفته للموت.. اذهبي.. لا أريدك. ورجعت إلى مصر ونذرت حياتي للعمل بالصحافة.. وخلال ثلاث سنوات أصبحت أهم محررة بالجريدة.. وعلى الرغم من كل ما وصلت إليه ما زلت أعيش على ذكرى ماضيه أكابد ألم حرمانه منه كلما خلوت بنفسه.

استمعت لها وأنا حائر.. هل أخفف من ألمها وأخبرها أنه المسئول عما حدث.. أم أصارحها بأنها كانت قاسية القلب ظالمة الانتقام؟

والغريب أنني لم أرَ أثرًا للدموع في عينهما.. فليست كل العيون تمتلك رفاهية البكاء. هل أقتل حينها في قلبي كما قتلت طفله في رحمها.. أم أفتح أبوابها الموصدة وأنزع أستارها المسدلة لتغيير وجهة سفين الحب إلى شطآنِي ويرسو قلبها على ميناء صدري؟ كنت أعلم أنها قوية.. لكن ليس إلى حد اتخاذ قرار بالقتل.. المرأة التي تستطيع أن تقتل طفلها لتشبع شهوة الانتقام قادرة على أن تقتل حينها لإشباع شهوة أخرى.

أصبحت حذرًا معها.. أحاول أن أستكشف مناطقها المظلمة وأمسك كل خيوطها.. ربما كنت أخشى من مصير مشابه.. وربما لأنها لم تبادلني حبي فأردت أن أحصل على كرامتي إن لم أحصل على قصتي معها.. وأصبحت هي أكثر لهفة وتشوقًا للقائي.

تخلت عن الكثير من حذرها وتحفظها السابق.. دائمًا تحضر قبل موعدنا ولا تنصرف إلا بعدما ألفت انتباهها إلى أن الوقت تأخر.. على الرغم من رقتها معي فإنني أصبحت أكثر قلقًا كلما تذكرت انتقامها البشع من الرجل الذي أحبته وأنا أسأل نفسي: إذا كانت قد فعلت هذا مع رجل ملك قلبها.. فتراها كيف يمكن أن تصنع مع رجل لا يملك منها أكثر من لهفة وابتسامة من حين لآخر؟!

حقًا إن النساء عالم مستقل وقوة كامنة كبركان ينام تحت أرض من الثلوج.. يمكن أن يحيل برد الحياة إلى جحيم لمجرد أنك جرحت أنوثته الأرض أو ضغطت على كبرياء الرحم.

المرأة لا تنظر للحب كمشروع قابل للريح والخسارة.. بل كحياة لا تعرف إلا العيش أو الفناء.. فإذا سقط حيا تحولت لكائن شائه أشد قسوة من جنزالات الحرب وأمرٌ مذاقاً من وقع السياط.. فالمرأة لا تعرف إلا الأمل الكبير أو اليأس القاتل.. سمعت عن تلك المرأة الأمريكية التي قطعت "عضو" زوجها لمجرد أنها شككت بخيانتته ثم ظلت طوال حياتها ترعاه وهي تقول له: الرجل لا بد من إجباره على الوفاء أما المرأة فهي لا تخون أبداً إذا كان في قلبها حبيب.. كل الرجال يصبحون عندها مجرد أشياء.. ورفضت أن تتزوج بعد موته كأنها تلقنه درساً أشد قسوة في معنى الوفاء لتهين بموقفها موته كما أهانت حياته.

وتلك المرأة الصينية التي قتلت زوجها ثم حنطت جسده واحتفظت به ممددا على السرير أربعين سنة تصلي أمام جثمانه لـ"بوذا" كي يعذب روحه في الجحيم جزاء خيانتته لها.

حقاً إن رحم المرأة التي حوت الرجل تجعلها تحوي وجوده وتحيط بكل أفكاره.. بينما نحن الرجال لا نشاهد من عالم النساء إلا أسوار وجودهن كمقبرة فرعونية لا يعبت أحد بسرّها إلا أصابته اللعنة الأبدية.. هل إذا امتلكننا أرحاماً يمكن أن نفهم النساء ذات يوم؟ لا أدري.. حقاً لا أدري.

وذات أمسية طلبت مني أن نتمشى في تلك الليلة الصيفية الرائعة.. كانت كف النسيم تسرح بين خصلات الشجر فتهدى الأغصان في رقصة حاملة.. ومع تطاير الأغصان كانت خصلات سارة تمارس رقصتها

هي الأخرى.. شعرها الأسود ينساب كجدول على ظهرها تلتمع عيناها تحت ضوء المساء.. كلما نظرت إليها شعرت برغبة عارمة في ضمها.. كنت أشتاق لقبليتي الأولى معها.. فلكل قصة قبلة.. فأين قبليتي منك يا سارة؟ شفتاها المكتنزتان توقظان رغبة الرجل بداخلي.. وصوتها الدافئ المبحوح يخبرني أي نوع من النساء هي.. كمهرة بريّة لا تكترث لشيء.. تعربد الأنوثة على جسدها الصارخ بشهوة سرية.. فلنساء الشرق سحر مختلف وشهوة مختلفة.. يختلط فيها خضوع الأنثى بمراوغتها.. تتماهى الرغبة والتمنع ليصنعا مزيجاً من جنون الشهوة.

كنا نسير بهدوء كذاك الذي يسبق العاصفة.. لامست يدي أناملها عن غير قصد فسرت قشعريرة في جسدي كله.. كنسمة شتوية تلسعني.. ونفثت رياح اللذة في جمر الحرمان فاشتعل جسدي شوقاً إليها.. فلم أتردد في أن أحتضن أناملها الصغيرة بين كفي وأنا أضغط عليها برفق كمشروع عناق لم يكتمل.. فاستسلمت ليدي ولم تقاوم.. وأخذت تعبث بأظافرها بباطن كفي فتثير حنيني إليها وشوقي.. جلسنا على أريكة تحت شجرة وسألتها:

هل ما زلتُ صديقك فقط يا سارة؟ أما أن لك أن تشعلي حريقاً في هذه الصداقة ليتطاير دخان الحب الأبيض؟

أخذت نفساً عميقاً وهي تنظر لعيني:

أنت كل من لي في هذا العالم يا عاصم.. أصبحت فاقدة للسيطرة على رغبتني في رؤيتك كل وقت.. ولا أشعر بالراحة والأمان إلا بين عينيك.. نظرتك العميقة تغريني بك أكثر.. وكبرياؤك الممتزجة بحنانك تشعرنني بأمان كامل وأنا معك.. لا أنكر أنني أصبحت أفكر فيك كلما خلوت بنفسني.. لكن أنا لم أشف من جرحي.. ما زالت تجربتي السابقة تحاصرني وتشدني لأعماقها كلما طفوت على السطح.. فأرجوك اصبر عليّ يا عاصم.

أنا لا أتعجلك.. فقط أريد أن أعرف أين أقف.. فلست من هواة السير بعين مغمضة.

ألم تقل لي كثيرًا إنك تثق بالقضاء؟ فكن معي وثق بالقضاء.. فأنت الإنسان الوحيد الذي أثق به.. هل يرضيك أن أقول لك إنني أحتاج إليك.. أحتاج لوجودك معي؟

مريضيني قربي منك ويزعجني أن أكون مجرد احتياج لك.. مرفأ تستريحين عليه ثم تواصلين رحلتك في عرض البحر!!

لا تكن ظالمًا يا عاصم.. أنا أبحث عنك في كل مكان.. حتى إنني أصبحت أشعر نفسي ثقيلة أفرض وجودي على خارطتك.

بل أنت خارطتي كلها.. لكن لا أجد حدودًا لتلك اللوحة التي تجمع خيوطك.. متسرّبة أنت دائمًا من بين يدي.

فابتسمت ومالت نحو كتفي:

ككيف أتسرب منك وأنت تحيط أصابعي بدفء يدك؟ لمستك  
تسري في عروقي كتميمة سحر أنقاد لها بغير إرادة.. لقد تأخر  
الوقت.. هل أكون سخيفة إذا طلبت منك أن تصحبني بسيارتك  
إلى منزلي؟

بالتطبع سأوصلك.

غادرنا المكان وأنا حائر في كلماتها الفضفاضة.. فلا هي اعترفت  
بحب ولا هي أغلقت الباب دوني.. كانت امرأة تسير بمحاذاة المشاعر دون  
أن تعانقها.. تروغ ووغان الثعالب.. كلما قبضت يدي عليها حتى أقول  
ملكها فأكشف أنني لم أقبض سوى الريح.. ماءً أنت يا سارة يمنحنا  
الحياة دون أن نحدد له لونًا ولا نغلق عليه أيدينا.. إلى أين يحملني حبك  
أيها المتسربة في عروقي؟

وصلنا إلى باب المنزل.. وقبل أن تغادر السيارة رفعت يدها لشفتي  
وطبعت قبلة على باطنها لأعيد رسم خطوطها لتصبح خطوطًا بلون  
الشوق وطعم الحرمان الذي أقاسيه معها.. نزلت من السيارة وراقبتها  
حتى غابت في مدخل بيتها ثم انطلقت.

وبعد دقائق اتصلت بي على الجوال وكانت أولى كلماتها:  
"وحشتني" .. سرى صوتها في أعصابي مخدرًا لا أريد أن أفيق منه: "وأنت  
يا سارة وحشتيني".

همل سأكون سخيقة إذا طلبت منك أن ترجع مرة أخرى؟

لكن الوقت تأخر.. كيف ستغادرين المنزل مرة أخرى؟

فواصلت مفاجأتها:

لن أغانر.. بل أنت من ستصعد لي.. أمي تركت لي ورقة تقول إنها  
ستبيت عند جدتي لأنها متعبة قليلاً.. ألا تحب أن تذوق قهوة  
من صنع يدي؟

أخشى أن أدمنها!!

لا بأس.. فقهوتي جديرة بأن تغامر من أجلها.

حسناً سأكون عندك بعد قليل.. في أي طابق تسكنين؟

الطابق الثالث شقة 9.

صعدت الدرج تقودني خطى الشوق.. كنت أتمنى أن يجمعني بها  
لقاء أرفع حياتي ثمناً له والآن سيجمعني بها لقاء وجدران تكتم الأسرار..  
قبل أن أضغط الجرس فتحت الباب:

أعرف جيداً صوت خطواتك.. خطواتك على السلم مميزة.

أتمنى أن تعرفي أيضاً صوت قلبي.. فوقه أعلى صوتاً.

١٢ دخل أيها الطماع!

كانت في ملابس المنزل أشد إثارة وأكثر روعة.. عطرها أكثر جرأة  
وشفتها أكثر شهوة:

قهوتك بغير سكر.. أليس كذلك؟

نعم.. فليس للسكر موضع في وجودك.. كل مذاق سيبدو مرًا  
مقارنة بك.

دخلت المطبخ لتعد لي قهوتي.. أخذت أنظر في كل ما حولي.. هاهنا  
تعيش سارة.. على تلك الأريكة تجلس.. وعلى هذه المائدة تأكل.. ذوقها  
رقيق.. لم يكن هناك أثاث كثير يحجب الرؤية ويحد من مساحات  
الحرية.. كل ما هنا بسيط وكل ما هنا محظوظ لأنه يشارك المكان..  
وحدي محروم منك.. أخذت أحرك يدي على الستائر وأمررها على المقعد  
لتلمس كل المواضع التي تحظى بها دوني.. كان الضوء خافتًا كصوت  
الحب في صدرها.. مشبوب بالقلق لا هو إلى الظلام ولا هو إلى النور.. كان  
بين بين.. تمامًا كقصتي معها بين بين.. فلا أنا أعرف هل أصبحت الحبيب  
أم أنني حبة النسيان التي قررت ابتلاعها لتنسى إخفاقها القديم وحبها  
الموؤود.

جاءت تهادي في ثوبها كغيمة صيف تمشي على استحياء على  
صفحة السماء تدفعها نسائم الجمال.. تسير بغير هدى لا تحدد اتجاهًا  
ولا يستطيع أحد أن يتوقع متى ستسقط مطرًا.

أرجو أن تعجبك قهوتي.. يقولون إنني ماهرة.. لكنني أشك في كل  
مهاراتي وأنا معك.. فوجودك مريبك للغاية.. أنت لا تترك  
مساحات بيضاء فعيناك تسيطران على كل ما حولك.

ابتسمت لكلماتها ثم ارتشفت القهوة.. كانت مرة كمذاق حرمان  
منها ونكهتها شهية كشفتها وقوامها رقيق كجسدها.. سارة هي قهوتي  
التي لا يعرف سر مذاقها أحد سواي!

وضعت الفنجان ونظرت بعمق عينيها:

أحبك سارة.

وأنا مأخوذة بك! أي جنون هذا الذي تدفعني إليه أيها الغريب؟  
ما عدت أسيطر على شوقي إليك.. أنت تملأ كل فراغاتي..  
والغريب أنه يرضيني ما يحدث.. لا أريد أن أفكر حتى إذا كان  
صواباً أم خطأً أن تشاركني أريكة في شقتي على مسافة من  
الجنون والهوى.

لو أنك توارين جثة حبيك القديم لنقيم سوياً بستاناً من عشق  
جديد!

حملك من الماضي واطرقتني الآن أراك كما أنت.. أعشق أن أرى  
عينيك تتسللان داخلي وأن يحوييني صوتك.

وضعتُ يدي على خدها لأرفع بسبابتي خصلة سقطت عشقًا على  
وجهها فأغمضت عينيها مستسلمة ليدي.. أغرقت أناملِي بشعرها  
فغمرني طوفان من السحر أصابني بسكرة من غير خمر.. أَلقت برأسها  
على صدري وأحاطت بيديها ظهري وهي تردد:

ضممني يا عاصم! امحُ المي بحنانك.

تهافت آخر حصون العقل وأنا ألامسها.. رفعت وجهها لأبصر  
سقوط النور على ملامحها الآسرة وبشرتها النحاسية.. كانت شفاتها  
كنافاذة نصف مشرعة تغري الرياح بغزو الستائر.. قَبَلْتُ عينيها فهزمتُ  
أنفاسُها بقايا صبري.. حركت ذقني على خدها فقالت:

لمستك تدغدغ أشواقي.. فلا تعصف بي أيها المجنون!

مررت بشفتي حول شفيتها قبل أن أسقط في ثغر الجنون لأمسك  
بشفتها السفلى أمتصها كما تمتص النحلة رحيق زهرة بكر تحت غطاء  
الندى.. لساني بفمها يستخرج كنوز لذتها المخبأة.. ارتوى من ريق أشهى  
من العسل.. شفاهنا تتعانق كغصنين عجزت الرياح عن فك سرهما..  
أسرح على شاطئ ثغرها كطائر بحري يقتات على هدايا البحر المبعثرة  
على شاطئ المساء.. لا أدري أيهما كان أشد صحبًا: صوت الرغبة في داخلي  
أم صوت أنفاسها المتلاحقات التي تشعل الحرائق حيث مرت على  
جسدي.

أرخ أيها الليل أستارك حولنا وخالف موعد المساء! أكمل أيها الليل رقصتك.. فما قيمة النهار إذا كان سيحرمني منها؟! واصلي أيها الشمس نومك واستريحي ليوم واحد أرجوك.. فهذا عهد المساء! اصمتي أيها الطيور حتى لا توقظي غفلة الشمس! واصل أيها القلب رقصة الخفقان واحتمل ضربة اللذة بقوة رجل.. لا تُمّت فرحًا.. فليس الوقت مناسبًا للموت! تدفقي أيها الدماء برفق في عروقي حتى لا أبدو كهيمجي هذا المساء! قف أيها الهواء أو ارحل إذا شئت.. فلا حاجة بي إليك.. فمن أنفاسها يخفق صدري!

وضعت كفيها حول وجهي حتى تحاصر اللذة بين دفتيها.. تقبل شفتي بفوضوية الأمطار وهي تنهال على وجه البحر فتتناثر الرغبة على جسدي كرهاذ الماء المتناثر على فراش الصخور بعد غزوة موج.. شفتها دافئتان متقدتان كجمر تحت جسد النيران يصرخ بلذة الاحتراق وتتطاير شظاياها في نشوة الحب.. فككت أزراها كما تفك النسائم رداء الشجر لتكشف عن سر الثمار.. خبأت وجهي بها كمن يبحث عن مدخل لخارطة سرية.. لفحتني رائحة جسدها وتواري العطر خجلاً.. فليس من عطر في الكون يضاهي رائحة الجسد في لحظة عشق.. أستنشق رائحة جسدها فيدور رأسي طربًا بلذتها وهي تضغط على رأسي بين نهدتها فلا أطفو أبدًا.. قلت لها:

سمن يمنحني حق الموت بجسدك؟ فأنا أولى بسكن عروقتك من دمك.

تمهدت:

اسكّني إذا.. شريطة ألا تغادر أبدًا! أنت محكوم بالإقامة  
الجبرية في جسدي! فارسم برفق أيها السجين المجنون على  
جدرانِي!

حركت شفّتها صاعدة هابطة على عنقي.. فسرى الخدر في كل جسدي  
بأنفاس تذيب خلايا وجودي.. فتحت قميصي كاشفةً عن صدري وهي  
تهمس:

لمست وحدك من يحسن فك الأزرار!

مسحت يديها على صدري كمغمض عينين يتحسس الجدار برفق حتى لا  
يسقط السقوط الأخير وهي تقول:

من أين أبدؤك؟ صدرك مثلك.. مريك لأنوثتي!

حركت خديها على صدري كيّد طفل يعيث بحشائش بستان:

شعرات صدرك تثير جنوني واشتهائي!

ترفع وجهها لتتنظر في عيني بأجفان تكاد تسقط وهي تقاوم حتى  
تظل عينها مفتوحتين كنافذة الفجر الذي يقاوم أسراب النهار.. ثم  
تهوي على صدري تحرثه بشفتيها تزرع قبلاها أزهارًا حمراء فتشعل النار  
حيث مرت وتوقظ الإعصار بأنفاسها البرية فأحتضنها برغبة رجلٍ يعشق

منذ سنواتٍ ثلاثٍ في الظلام.. أعانقها بضمّة شوق نمت أغصانه في كهف  
بارد نضجت ثماره تحت وطأة الحرمان.. قالت:

تعال ل ترى غرفتي!

أمسكت بخنصري وهي تجذبني بشوق أنثى تقف على حافة  
الهاوية.. جلست على حافة السرير.. كنت أسمع أنين الوسادة تنادي إلى  
لقاءٍ تحت جناح الجنون.. أزلتُ بقايا رداؤها كما تزيل الرياح بقايا الغمام  
لتكشف عن جسد القمر.. تساقطت ملابسها سكرى وتساقط معها آخر  
قطرة في كأس صبري.. أتممت بقبلاتي على حدود مملكتها وهي تموء كقطعة  
تستثير حنان صاحبها.. تنتفض كورقة تهتز تحت ریح جائعة لمسّ  
الغصون.

وقبل أن أطرق آخر باب لينكشف السر الأخير وهي مستسلمة  
لإعصار رغبتى الذي يجتاح مدينتها:

الآن يا سارة.. أخبريني هل تحبينني؟

أريدك.. أريدك بكل جوانحي ووجودي.

الإرادة نية مبيتة وقرار تم اتخاذه من قبل.. أما الحب فقضاء  
نخضع له شئنا أم أبينا.. هل عرفتِ هذا الحب يا سارة؟

أنت تصر على أن تزعج ليلتنا.. أما يكفيك أن تكون الأقرب؟ أما  
يكفيك لتثق بتميزك عندي أن يحويك فراش معي؟ هل ما زلت  
تشك بأن هناك مساحات بيننا وجسدك يغطيني؟

قَبَلْتها قبلة طويلة على جبينها ثم رفعت وجهي ووضعت يدي على  
خدها لأرفع خصلة سقطت بفعل النوافذ المشرعة على شرفة الجسد..  
ومسحت بيدي على شعرها وقلت:

أحبك يا سارة.. لكن إذا لم أكن حبك فلن أكون خطيئتك.

أردتك لقلبي وأنا واثق أنه سيرفعك لي.. وهبتك كل ما أملك وتركت  
كل شيء لأجلك ولن أرضى بعد اليوم بأقل مما وهبت.. أنت ترفضين  
الحب حتى ونحن نتشارك السرير ذاته! هل تظنين أنني يكفيني أن أمتلك  
عقلك وجسدك ويبقى قلبك رهين حبك الأول؟ في الحب إما أن نحصل  
على كل شيء وإما أن نخسر كل شيء.. أنتِ من علمني هذا الدرس يا  
سارة.

عندما ينبض قلبك بحبي وتستطيعين نطقها من دون تردد ومن  
دون شك في صدق قلبك.. ساعتها.. وساعتها فقط.. سأمنحك كل أسرار  
جنوني وعشقي! أنا لا أقبل بمدينة تسقط سهوا ثم تطلب حق الحكم  
الذاتي! استسلمي لحبي بغير قيد ولا شرط لأرفعك على عرشي متوجة  
بغير شريكة للأبد.. تلك قناعاتي يا سارة وهذا قراري.. ولن أراجع.

نهضت من فراشها وهي تنظر لي بعين ذاهلة محطمة الكبرياء..  
أعلم أن كلماتي هزّت أنوثتها وأن موقفي جعلها تنظر لنفسها عارية أمام  
مرآة الخجل.

لم أكن أشعر بلذة انتصار لأنها لم تكن خصمًا لي في رقعة شطرنج  
بل هي حياتي كلها.

لفرط حبي رفضت أن أمتلك جسدها وأخسر قلبها.. أي قيمة أن  
يجمعنا فراش ولا يجمعنا عشق نجمة في ليلة حب؟ ماذا حققت أنا حين  
تصرخ لشدة لذتها معي ولا تبكي من شوقها لي في ساعة حرمان؟ لن أكون  
قد ملكتها بل دنستها.. ودنسها فقط.. وليس هذا هو الحب الذي قاسيت  
الحرمان في سبيله لسنوات طوال.. فاغفري لي يا سارة.. اغفري لي يا أنا.

نزلت من بيتها بقلب غير الذي صعدت به.. صعدت كصعود  
الدخان من فم الاحتراق وهبطت كهبوط الليل الحزين ليخبي دموع  
الهضاب.. ما زلت في هبوط وصعود معها! يا إلهي متى سأستريح ثابتًا على  
أرض الحب؟ ليست الأشياء التي نتمناها تحمل راحتنا دائمًا.. فكثيرًا ما  
نكتشف أن الأهداف التي سعينا وراءها كانت أفدح خسائرنا وأعظم  
آلامنا.. ما زالت تدفعني رياح القدر لألقى مصيري المحتوم على حافة  
الحب.. لتكون مشيئة الله!

كان جرحي لها نافذًا في عمق الكبرياء.. وكما توقعته.. لم تتصل بي  
أو تطلب مقابلي كما كانت تفعل كثيرًا في الفترة الأخيرة.. فقد رحلت عنها

بعدها شرعت كل أبوابها لكنها أغلقت نافذة القلب وأنا أرفض الدخول إلا عبر بوابته الرمادية.. كل الأبواب غيره كانت ستفقدني إيماني بذاتي وتقديسي لحبي لها.. كنت أرضى أن أخسرها ولا أخسر حبي لها.. هكذا كانت اختياراتي دائماً بين خسارتين!

لم أتصل بها أنا أيضاً.. فقد كنا بحاجة لمساحة من الفراغ بيننا حتى يعيد كل منا ترتيب أوراقه ويداوي جراحه من أثر ارتطام جسدين في لحظة لذة.. بدافع الحب من أحدهما وبدافع الشوق من الآخر.

أصبحت أكثر اهتماماً بدراسة الماجستير.. أقضي وقتي بين القراءة والمقهى وأطمئن على أمي هاتفياً من وقت لآخر.. وجاء أخيراً موعد مناقشة رسالة الماجستير وحصلت على تقدير امتياز مشفوع بمنحة لدراسة الدكتوراه في إحدى جامعات لندن.. ترددت كثيراً في قبول منحة السفر.. كنت أخاف دائماً من الغربة وما زال شيخ مأساة أخي ماثلاً أمام عيني.. صرت أكره بلاد الغرباء ولست أرتاح في بلادي أيضاً.. استشرت "محمد" في الأمر فأشار بأنها فرصة كبيرة لأحصل على شهادة الدكتوراه وفي الوقت نفسه لأتخلص من الآمي بعيداً عن وطن الآلام.. لكن ما زالت قناعاتي بأن نار هذا الوطن خيرٌ ألف مرة من جنة الغربة.. ما أعجب أمرك يا مصر.. مهما لاقينا على يدك لا نرضى بديلاً عنك.. أعشق طرقاتك المكتظة بقهرها وجدرانك القائمة على أسرار المظالم وأفضلها على بلادهم الباردة الخالية من بسمه المصرية ونكتة مصرية.. وطعنة مصرية أيضاً.

كانت علاقة محمد بعلياء تشعرني بشيء من الرضا.. فكثيرًا ما تتحقق أحلامنا الخاصة في مشاريع أفراد آخرين! كان حبهما الذي ينمو بهدوء يمنحني سعادة الرضا بأني وإن فشلت في إسعاد قلبي فقد نجحت في زرع الحب في قلب أقرب الناس لي: محمد وعلياء.. كنت أدعو الله أن يعوض علياء عن جرحي لها وأن يعوض محمد عن زوجته.. كان حبهما جائزتي الكبرى.. سموتُ فوق مشاعر الغيرة التي ينفثها الشيطان في نفسي.. من وقت لآخر يقول لي: كيف تترك الفتاة التي أحببتك بصدق لغيرك؟ كنت أقمع نفسي بتراتيل الوفاء! قم أيها الحب بينهما ولتظلل عليكما يد السماء.. كن أيها القدر رحيماً بهما ولا تفجعني في كل من أحب.. اقترب منها يا محمد وانزع حي من قلبك يا علياء فعلى الباب من هو خير لك مني.. فأنا لم أعد رجلاً يصلح إلا لأردية الحزن.. فاعز في يا قيثارة الأفراح ألحان الحب على أوتارهما.

حدثني محمد بخجل كبير وهو يخبرني عن ثقته في حبه لعلياء منذ زمن بعيد حتى قبل أن أفارقها.. يقول لي:

٢- اغفر لي يا عاصم.. ولا تعتبرها خيانة.. فقد كنت أحبها في صمت وأحترم علاقتكما.

فابتسمت له:

على العكس تمامًا يا صديقي.. هذا يسعدني أكثر.. ولو كنت وليًا لعلياء ما كنت لأوافق على أحد سواك.. لكن لا تحبس حبك في

قلبك يا محمد.. اطرق أبوابها ولا تتردد! لن تخسر شيئاً.. على الأقل لا تكن مثلي.. اترك الأرض الرخوة وبحر الرمال ولا تقف إلا على صخرة اليقين.

لم تمضِ أسابيع قلائل حتى جاءني محمد تتراقص الفرحة على ملامحه:

أخبرتها يا عاصم وقالت لي إنها تشعر بحبي هي الأخرى في قلبها.. لكنها خائفة من أمر أريكني.

أي أمر؟

خائفة أن أحاسبها على حبها القديم لك!

وهل يمكن أن تفعل هذا؟

مستحيل! عليك كبيرة في نظري.. وإخلاصها القديم لك كان يزيدني احتراماً لها.. ليس من حقي أن أحاسبها على صدقها ووفائها.. ما دامت أحبتي أخيراً فلماذا أبعث شعوراً قد انتهى في قلبها؟ ليست القضية أن يكون لها حب أول.. القضية أن أكون أنا حبها الأخير.

أسعدتني كلماته:

هذا أنت يا محمد.. كما عرفتك دائماً نبيلاً كريم الرجولة.. أدعو  
الله أن يبارك لكما.

مستباركنا أنت أيضاً يا عاصم؟

أقسم لك لم يعد هناك أي شيء يسعد قلبي إلا حبكما.. فامنح  
قلبي راحته وأتم أمرك.. أنصحك أن تتخذ خطوات عملية.

أخاف أن يتحفظ أهلها على ارتباطي بها.. لا تنس أنني أرمل ولي  
طفلة.

لا أظن.. فإن هذا لا يعيبك.. ستكون علياء أمًا لطفلتك وأنيبًا  
لوحدتك وحبًا لقلبك.. فلا تجعل الأوهام تعصف بحبكما..  
توكل على الله يا صديقي ولتكن مشيئة الله.

تمت الخطبة سريعًا.. لكني لم أذهب إلى الحفل.. عاتبني محمد  
كثيرًا على عدم حضوري.. قلت له:

أنا أحترم خصوصية العلاقة بينكما وخشيت أن يكون وجودي  
مزعجًا لعلياء.

همل تعرف أن علياء أكدت عليَّ أن أدعوك لحفل الخطبة؟ أنت  
أخي يا عاصم ولست مجرد صديق وأثق أنك أخ لعلياء أيضًا..  
أليس كذلك؟

بالطبع.. لكن هذه كانت مخاوفي فاعذرني.. أعدك أن أكون أول الحاضرين في حفل الزفاف.

أثناء تصفحي للجريدة التي تعمل بها سارة.. وجدت لها خاطرة بعنوان "متعطشة إليك" .. أربكتني وأشعلت حرائق القلق والحيرة في صدري:

"أيها الراحل عني.. حتى متى تترك برد المساء يسحقني؟ تدور حولي كل العيون ووحدك من أبحث عنه.. معلقة أنا كورقة تحت ثوب الخريف.. فلا تجعل سقوطي إلا بين يديك.. اغفر لي فقد غفرت لك.. أنثى معطلة أنا من دونك.. وحدك من تملك شفرة الولوج لقلبي.. فحتى متى سيظل قلبي مغلقاً على أسرارك؟ أطلق خيول الحلم لتفتح أبواب الرجاء.. سئمت من كثرة النداء فمتى تليي؟ تقدم من أجلي لأعد لك عشاءً بمذاق جسدي وقهوة برائحة الحب.. لا تطرق الباب لأني أقف في النافذة أنتظر كل مساء!"..

كلماتها ألقت بي في بئر من الحيرة.. أربكتني حروفها ونداؤها.. ترى لمن كانت كلماتك يا سارة.. فحروفك مراوغة مثلك؟ هل هذا الشوق لي أم لرجلك الراحل عنك؟ يعذبني وجودك ويعذبني غيابك.. وهاهي حروفك تعذبني أيضاً.. أنثى للعذاب أنت يا سيدة الانتقام! إذا كان حبك له ما زال مشتعلاً فلماذا حملتني لفراشك وفتحت أبوابك لي؟ هل أرسلت كلماتك تلك لتزرعي أشجار النار بصدري؟ هل يمكن أن يكون حبه ما زال ينبض بداخلك.. أم أنها رغبة الانتقام المتأصلة بروحك؟ هل تريدن إذلال

كبريائي حتى يُشفى جرح كبريائك؟ مخطئة أنت يا سارة.. أنا ما أردت  
إذلالك! رفضت أن أحصل عليك قبل أن تمنحيني قلبك.. فلست ممن  
يلتفتون إلى روعة الثمار وينسون قدسية الجذور؛ لأن كل الثمار تسقط  
في النهاية ووحدها تبقى الجذور شاهدة على حياة الأغصان.. لماذا هذا  
الظلم؟ لماذا تغسلين جراحك بدمي؟ أعرفك أنا جيدًا.. أنت سيدة القتل  
من أجل الكبرياء.. فهل حان دوري؟ بأي طريقة ستجهضين حبي من  
رحمك؟ هل ستمنحين جثتي حق الدفن الكريم بمقبرة قلبك أم  
ستصلين قلبي على أعمدة الانتظار حتى تأكل الطير من رأسي؟

أين أنت يا يوسف الصديق لتعبر لي رؤياي فإنني أرى امرأة  
تذبحني بشريط من حرير! نبيئي أيها الصديق.. هل هذا زمن العذاب  
والسنين العجاف؟ ومتى يأتي عام يغاث فيه قلبي؟

قررت أن أقطع الشك باليقين لأعرف لمن كانت كلماتها.. لي أم له..  
اتصلت بها وكانت أولى كلماتها:

أزعجتك الخاطرة.. أليس كذلك؟

أنت تعرفين دائمًا من أين تؤكل الكتف.

هل تغار يا عاصم؟ هل تحبني؟ هل ما زلت مقتنعا أن لك قلبا؟  
هل حصلت على ثأرك؟

سما هذا الظلم يا سارة؟! أنا لم أفكر لحظة في إيذاء مشاعرك.

نعم لم تفكر.. لكنك فعلت ونفذت!

أردتك حبيبة لا عشيقة.

أنت تجرحني أكثر بقولك هذا.. تشعرني أنني ساقطة التقيتها في الطريق.

جل أنت حبٌ تعثرت به في طريق القدر.. حبٌ هربت منه فاصطدمت به ولم أستطع النهوض ثانية.

فلمماذا أردت إذلالي؟!

جل أردت حبك فقط.. وهذا ما لم تفهميه أبدًا!

أنت لم تترك فرصة لأثبت لك حيي.

همل كان يجب أن أنتظر حتى يلقي النهر بجثتي إليك حتى تعترفني بحبك لي؟ يبدو أنني عجزت حقًا عن محو بقعة الحب القديم في قلبك.

أنت مخطئ يا عزيزي.. أين ذهبت فطنتك أيها الأديب؟! كيف غاب عنك نبض صوتي؟ وكيف عجزت عن قراءة عيني؟ هل تحتاج لكلمة بحجم "أحبك" لتعرف أنك أصبحت تسكنني؟ هل تظن أنني معتادة على اقتياد الأصدقاء لغرفة نومي؟

همل تحييني يا سارة؟

سما زلت مصرًا على إشباع غرورك وإرضاء كبريائك بهذه الكلمة فقط.. إذا كان هذا ما يرضيك فاسمعها إداً: نعم أحبك.. أحبك بكل قلبي وملاً حبك كل مساحاتي.. وبعديك عني طيلة الأسابيع الماضية جعلني أعرف كم أعشقتك.. وجعلني أيضاً أدرك كيف ستكون عذاباتي من دونك.. وأنا قررت ألا أتعذب مرة أخرى.. لقد أصبحت حبي الأخير يا عاصم! هل تتذكر أول لقاء بيننا عندما قلت لك إن أروع ما في الحب أن يظل مشروعاً بغير أرض وحلماً بغير واقع.. فالحقيقة تفسد قلوبنا.. والممارسة تقتل شعورنا.. وأنا لن أضحي بكل حب أحصل عليه.. سأظل أحبك لكن دون أن أكون لك أبداً! نعم.. لن أكون معك حتى لا ترحل عني.. ألم أقل لك إنني امرأة موعودة بقوافل الرحيل؟ فاذهب أنت واترك لي حبك!

أنت تبحثين عن مبرر في خزانة الكلمات لتبتعدي عني!

لا يا عاصم.. ألم تقل وأنت على سريرى وتتوسد صدري بأنك لن تساوم على قناعتك؟ أنا أيضاً تعلمت منك هذا الدرس.. فلست وحدك التلميذ النجيب هنا! مقتنعة أنا بأن الواقع سيحرمني منك.. لذا قررت أن أظل محتفظة بحبك في حقيبة الخيال وخزانة القلب.. وهذا قراري الأخير.. أحبك ولن أكون لك أبداً.. ولن تراني أبداً.. سأعيش فيك لكن لن أعيش معك.

مرت دقائق من الصمت.. هاهي سارة تعترف أخيراً بحبها في الوقت ذاته الذي قررت فيه الرحيل الأخير.. لا بأس.. فقد اعتدت على فقد وأدمنت الخسارات الكبيرة! كلما عظمت أحلامنا فدحت خسائرننا.. فلا تشتعل الحرائق الكبيرة إلا في المشاريع الكبيرة.. فلتسقط أيها السقف.. فما عاد يسكن تحتك أحد.. ولتحمل أيها القلب حبك وتمضِ وحيداً في نفق الظلمة والصقيع.. ودعتها قائلاً: كوني حيث شئتِ يا سارة فسأظل وفيًا لحيي لك لأنه كان الحب الصادق.. ولن تكتب أقلام الحب على قلبي حروف اسم سواك.. وحدك صفحتي التي أرتلها وكلما انتهيت منها بدأتها من جديد.. صفحة أنت لا أستطيع أن أقلبها فأعرف غيرها ولا أقوى على تمزيقها فأتخلص منها.. فبعض الصفحات تكتبنا ولا نكتبها.. أحبك يا سارة.. فتذكري هذا جيداً! وتذكري دائماً أنك صادفت الحب الصادق ثم تركته يمر من بين أصابع غرورك وكبريائك الظالمة! ثم أغلقت الهاتف.. أغلقت نافذة الإعصار الأخير.. فما عادت حجرتي تقوى على مواجهة رياح الشمال.

قررت العودة للعمل مرة أخرى.. فقد كان فراغي لأجلها هي.. كانت كل ما يشغلني.. تملأ كل مساحاتي وتكتب بمداد من النار على صفحتي الخضراء! لأعود إذاً إلى أنين المرضى وشهقة الجراح.. فأنا سيد الجراح وطبيبها العاجز عن مداواة جرح قلبه.. كلما عالجت جرحاً جدياً في قلبي جرح أشد ألمًا وأقسى توحشاً.. مجروح بأخي المقتول وأمي الغائبة ووطني السجين.. ومجروح بك يا سارة! لا بأس يا قلبي.. واصل حتى تمتلئ الكأس! هل هذا هو الفصل الأخير على مسرح الألم؟ هل تلك هي النهاية

التي انتظرتها طويلاً؟ في الوقت الذي جاء فيه الحب إذا به ينسحب إلى الأبد!

ألقت لي سارة بحمها كمشاب أنار السماء وصفقت له النجوم ثم سقط رماداً تذروه رياح اليأس العاتية.. جاء حمها كطفل انتظره أبوه العقيم عشرين سنة.. فلما أتى وابتسم له قال: وداعاً يا أبي.. فما جئت إليك إلا لأرحل عنك. أشبعي كبرياءك وأطعمي انتقامك من قلبي يا سيدة القتل! أرحلي فإني مثلك قررت الرحيل! وبعض النهايات إذا لم نخترها بأيدينا أجبرتنا عليها يد القضاء! أحببتك بصمت ولسوف أرحل بصمت أشد قداسة! لن أقول سأنسأك لأنني سأكون كاذباً جداً؛ لأن نسيان إخفاقاتنا هزيمة أكبر! فالكريم ينظر لجرحه ولا يبكي.. يتحسس ندباته ويعري ضعفه أمام الشامتين ليلقى مصيره بشجاعة طيور البطريق التي تمضي نحو البحر لتنتحر وهي تمارس رقصة الكبرياء! ولتهنئي يا علياء ونامي قريرة العين.. فقد أرسلت السماء من يديقتي من الكأس ذاتها التي قدمتها إليك.. لسوف أشاركك الليلة نخب الجراح الذي شربته ليلة في صحة الوطن ذات سُكر والليلة سأشرب في صحة قلبي المطعون وأملي الذبيح.

ولست أدري.. هل ستطوي سارة حقاً صفحة قلبها على حيي؟ وهل ستسدل الستار على مسرح الحب الأخير.. أم أنه كلما انتهى عرض أقامت عرضاً جديداً فما زالت شهوة الانتقام في شوق لمزيد من الدماء؟

obeikandi.com

الوطنُ إذا تَوَلَّى

واشتعلت حرب غزة.. وصبّت إسرائيل شأبيب الجحيم على  
رءوس الأطفال.. انتفضت الأمة يحملها بركان الغضب فقمعت الأنظمة  
صوت الصراخ وكممت فاه الأنين.. أي ظلم أن تطلب من الذبيح ألا  
يصرخ حين يسافر السكين بين الشرايين؟

اتصل بي محمد لنشارك في مظاهرة كبيرة تنطلق من الأزهر فقلت  
له: انتهى وقت الصراخ.. فالبيت لا يفرح بكثرة المعزين فيه؛ لأن هذا لن  
يعيد له حياته السلبية.. تظاهروا أنتم.. أما أنا فسأذهب إلى غزة.. إن لم  
أستطع حمل بندقية الشرف فسأحمل مشروط الشفاء لأدوي أطفال  
العزة السلبية الذين منحونا الكرامة بأيديهم الناعمة وهي تحمل حجارة  
الصمود في وجه العالم الظالم.

ولكن السفر إلى غزة قد يكلفك حياتك أو على الأقل حريتك.

حتى متى يا محمد سنظل نطلب البضاعة بغير ثمن؟ من أراد أن  
يحصل فليدفع.. وأنا سأدفع كل ما أملك لأنني لست من هواة  
الادخار.. فقد خسرت كل شيء ولم يبق لي إلا الإيمان بهذه  
الأوطان وتحريرها. قد أرسلت إلى نقابة الأطباء طلبًا بالالتحاق  
بالمتطوعين للعمل في مشافي غزة.. وسأترك معك وصية لأمي..  
عليك أن تكتب وصيتك إذا قررت أن ترحل إلى أوطاننا العربية..  
فالموت ينتظرك على كل المحاور.. إذا لم يكن بيد العدو فبيد  
الصديق.. إذا لم أعد فسلمها لها.. كتبته في جوف الليل بعد أن  
حزمت حقائبي للسفر في صباح اليوم التالي: "أمي.. هذه وصيتي

إليك.. إذا وصلتك فاعلمي أن روحي أصبحت في يد بارئها.. قد ذهبت يا أمي إلى هؤلاء الذين تخلى عنهم العالم ليقابلوا بضعفهم وفقرهم وجوعهم.. لن أصفق لهم يا أمي.. بل سأشاركهم نخب الدماء والدموع.. لا تحزني لأجلي.. إن جاءك خبر موتي أليس جديرًا بالأهميات أن يفخرن بأبنائهن إذا بذلوا أنفسهم لأجل الأوطان؟ فمهما لاقينا في أوطاننا فلن نتخلى عنها أمام العدو.. اغفري لي يا أمي.. فلن يستريح ضميري وأنا أنام في فراشي وأطفال غزة ينامون على فراش الموت تقذفهم السماء ويرجمهم البحر.. لقد خسرت قلبي يا أمي ولن أخسر أيضًا ضميري وشرف الإنسان بداخلي.. اغفري لي أيها الحبيبة وأسألي الله في سجود الفجر أن يمنحني يمين رحمته.. ابنك عاصم".

سلمت الرسالة لمحمد في صباح اليوم التالي ورحلت إلى سيناء ومنها إلى غزة.. ما كنت أتوقع ولا أتخيل ما رأته عيني.. كانت الفاجعة أبشع من تصور حتى الشيطان.. أحرقت الطائرات كل شيء وقذفت الرواجم والمدافع كل بيت.. في كل زاوية قتيل وفي كل ركن جريح. لم تعد السماء تسع شيئًا غير طائرات النار.. كل من هنا يقاتل.. نساء يحفرن الخنادق وعجائز يحملن الحجارة للمتاريس.. شباب وشيوخ كلهم يصرخ بالتحدي.. وبين العرق والدماء تبرز عيون الكهرياء وملامح اليقين.. لا أسمع منهم إلا كلمة "صامدون.. نموت ولا نهان".

كم هي عجيبة هذه الأمة.. تمرض لكن لا تموت أبداً!! من بين براثن الهزيمة تنطلق بشائر النصر.. ومن رحم الظلماء يولد الضياء ويلوح الأمل للصامدين.. المحنة وحدت صفهم لا يعلن أحدهم عن انتمائه لفصيل ولا حزب.. الكل هنا يقاتل ويموت دفاعاً عن أخيه.. وحدهم الساسة يفرقون بيننا.. ووحده حب الأوطان يوحد بيننا.. ويختبئ الذين عذبونا خلف قصورهم لتدفع الأمة ثمن خياناتهم باهظاً جداً.

ذهبت إلى مشفى غزة الرئيسي.. كنا سبعة من مصر ومثلهم من السعودية والإمارات والأردن.. كنا نشعر بالخجل ونعتذر نيابة عن أوطاننا التي تركتهم لمواجهة المصير وحدهم بصدر عارٍ وظهر يشكو خيانة الشقيق. كان هناك عجز كبير في الأطباء.. وعدد الجرحى في تزايد كل دقيقة.. أقدام مبتورة وأجساد ممزقة.. فقد توحشت إسرائيل وأطلقت ذئاب الغدر لتعزف لحن الموت على قيثاره التلمود.. ينشدون قصائد الخراب على مسامع الأطفال الأبرياء والشيوخ الضعاف والأرامل واليتامى.. تبسم الناب الأزرق شامتاً في وجه البراءة.. وزحفت حيات الليل الغادر على أحلام العصافير.. الدماء تغطي أغصان الزيتون.. والدخان يحجب وجه القمر.. اختفت الطيور الصادحات وامتلكت الغربان والخفافيش سماء السلام.

بين الموت والظلام نعيش.. كنا نعمل لعشرين ساعة في اليوم.. ولو استطعنا لواصلنا الليل والنهار.. فيقضتنا كانت تعني انتشار طفل من بين أنياب الموت ومنح الحياة لعجائز في الرmq الأخير.

استضافتني في منزلها أسرة مكونة من ثلاثة أبناء أصغرهم في العشرين من عمره وأكبرهم في مثل سني.. إضافة إلى أمهم العجوز.. كنت أرى وجه أمي الطيب في عينها وكلماتها الحانية وهي تقول لي:

الله يبارك فيكم يا عاصم يا ولدي.. ليس لكم ذنب في هذا العذاب.

ليس ذنبنا يا أماه.. بل هي جريمتنا.. فنحن من أسلمناكم بصمتنا وخوفنا.. وإذا كانت أوطاننا قد شاركت العدو في حصاركم ومنعتكم الطعام والدواء فلن تستطيع أن تمنعنا من مشاركتهم المصير ذاته.. صدقيني كل من بمصر يتمنى أن يكون مكاني الآن.. ما زالت الشعوب مؤمنة بوحدة المصير مهما وضعت الأنظمة آلاف السدود وترست الحدود فلن يمنعوا الماء من حق الجريان.

انقطع التيار الكهربائي عن المشفى ونفذ معظم الدواء ونحن نعض أصابع العجز أمام تضاعف عدد الموتى.. بعضهم يتزف حتى الموت لا نجد مرتقة نخيظ بها جرحه ولا ضمادة تخفف نزفه ولا مسكناً يخفف ألمه! فلتموتي يا فلسطين بيد العرب قبل يد العدو.. واملئي خزائنك يا بلاد العرب وشيدي قصورك.. نافسوا الغرب في كل سبل الرفاه واتركوا أطفال فلسطين مائدة عامرة للموت.. فهذا زمن الخيانات الكبيرة.. اسقطي يا غزة كما سقطت غرناطة.. وابكوا يا أمراء العرب على وطن يذبح.. ابكوا كالنساء على وطن لم تحافظوا عليه كالرجال.

ذهبت إلى المقاتلين. قلت لهم:

إن سلبونا المشروط حتى لا نداوي جراحكم فلتعطونا أنتم  
بنندقية لنقاتل عدوكم موتاً بموت ودمًا بدم.

قال قائدهم:

أنت في مكانك لا تقل عنا.. فحاجتنا إلى طبك أعظم من حاجتنا  
إلى بندقيتك.. أرجوك نحن لا نقبل أبدًا بموتك في حرب لا ناقة  
لك فيها ولا جمل.

ما شقيق.. لا فرق بيننا.. فهدمكم هدمنا وجرحكم جرحنا.. فلا  
تحرمي شرف العربي وأنا أشاهد سقوط مدن العرب وكرامتهم!

وبعد إلحاح وافق على انضمامي لصفوف المقاومة.. دربوني على  
إطلاق النار.. وخلال أيام ثلاثة صرت ماهرًا إلى حدٍ كبير.. كنا نواجه  
الدبابات المترسة ببنادقنا البسيطة.. أرى رجالاً جاوزوا الستين يمسون  
ببنادق قديمة وهم يرددون: "والله لن يمروا إلا على أجسادنا".

أصبح القتال وجهًا لوجه من حارة لحارة ومن بيت لبيت.. دخلت  
قوة يهودية إلى خان يونس فأخلى المقاتلون لهم الطريق حتى يستدرجهم  
إلى الأزقة الضيقة.. وما إن دخلوا حتى هبطنا عليهم كصواعق السماء في  
ليلة غضب ترمجر فيها الرعود وتصب السماء لعنات الإله على الظالمين..  
الليل ينادينا للقصاص والرياح تعصف أن حطموهم! الكل يقاتل..

النساء يلقين بالحجارة من فوق الأسطح.. المقاومون يصبون الرصاص في صدر الغدر.. سقط سبعة من اليهود قتلى.. تدخلت طائرات الأباتشي هدية أمريكا لأطفال غزة لتنهى المعركة.. في دقائق تهاوت المنازل وسقط عشرات من المقاتلين.. أصبح الموت يحيط بنا بعدما أحاط بهم.

رأيت جندياً إسرائيلياً يختبئ في زاوية.. وما إن التقت عيناي عينيه حتى هرولت إليه وأنا أردد: حرام عليّ الحياة إن نجا مني.. كان يرتعد من الخوف وهو مدجج بأقوى سلاح.. فماذا تفعل البندقية المذخرة في يد الجبان المرتعش؟ ألقيت بغضبي عليه أزرع أظفاري في وجهه وأغرس أنيابي في عنقه.. كدت ألثمهم.. ألثم وجوده.. أنني حياته.. دولته.. كيانه.. أضربه بغضب الوطن وحزن الوطن وجرح الوطن.. اقترب الموت منه وهو تحت سطوة غضبي يخضع.. حتى جاء ثلاثة من المقاومين يحاولون استخلافه من بين يدي وأنا أصبح: لن أتركه إلا قتيلاً.. فقال أحدهم: اتركه من أجل غزة فأسرته سيفيدنا أكثر من قتله.. أرجوك سنضمن بأسره حرية كثير من سجنائنا.. تركته مجبراً.. فمن أدري منهم بحاجتهم؟ كنت أريد أن أشبع قهري بقتله وأطفئ نار صدري بإنهاء حياته.. أردت أن أقتل فيه كل من ظلمونا وسجنوا أوطاننا.. أردت أن أهزم فيه النظام العالمي الذي يبكي لأجل هرة تموت فوق شجرة في غابة فيلادلفيا ويصفق لقتل أبنائنا.. أردت أن أقتل فيه أنظمتنا الفاسدة التي باعتنا في سوق العدو بلا ثمن.. أردت أن أقتل قتلة أخي وقتلة وطني.. لكن لا بأس.. لتعيش أيها العدو ما دامت حياتك ستمنح الحرية لمن يعيشون في ظلام سجون بني جلدتك.

رجعت إلى البيت الذي يستضيفني فوجدت أهمهم العجوز وحولها نسوة كثير.. فقد سقط أبناؤها الثلاثة قتلى بعدما احترقت أجسادهم بقنابل الفسفور وهي تقول: الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم.. لا تحزن لجرحي يا عاصم.. ففلسطين يا ولدي هي العروس وقد قدمت أبنائي مهراً لعرسها.. فافرح ولا تبك من أجلي.

رجعت إلى المشفى لأشارك في ميدان آخر.. فهذا زمن الحروب المفتوحة في كل مكان.. زمن تفرح فيه الأمهات بموت الأبناء.. فالموت بكرامة خير من حياة الذل والهوان والاستسلام.

انتهت الحرب في غزة.. وهدأت عواصف الدمار.. وأدركت إسرائيل أنهم لا يمتلكون هزيمة شعب تفرح فيه الأمهات بموت الأبناء.. أي جيش في العالم يستطيع قهر أمة قررت أن تموت في سبيل عزتها؟ ستسقط كل أسلحة الردع أمام سلاح الإرادة الصادقة.. سحبت إسرائيل جنودها يجرون أذيال الذل والعار بعدما عجزوا أمام الأطفال والنساء الذين يقاتلون بصدور عارية.

قريباً جداً سينفرط عقدك يا إسرائيل! ضاع أثر السحر في ترنيمة التوراة وتعرت سواة السامري.. سقط السحر والساحر.. إن جيشاً وقف عاجزاً أمام مدينة بلا أسوار بلا جيوش بلا سلاح لهو جيش ضعيف.. وإن مدينة استطاعت أن تنتزع حريتها بسواعد عارية إلا من العزيمة لهي مدينة جديدة بأن تصبح دولة ودولة جديدة بأن تصبح أمة.. حجارة حطمت إسرائيل فكيف ضاعت الديار يا جيوش العرب؟ على

الرغم من كل ضعفنا وهواننا ما زالت أمتنا تعتصر النصر من الهزيمة وتختطف النور من فم الظلام وتنتزع العزة من بئر المذلة.. خطوة أخرى أو خطوتان.. دمعة ودمعتان وتحررين أيتها الأوطان.. فأمتي أيتها الشعوب بمصيرك السعيد واطلي النصر بصدق العزائم لتقتطفه من سفوح المحال.

رجعت إلى مصر وما إن وطئت قدمي أرض سيناء حتى استوقفتني الشرطة واقتادوني إلى القاهرة في عربة السجناء.. بأي تهمة ستسجنني يا وطني؟! بتهمة الانتماء.. بتهمة الحب.. أم بتهمة العروبة؟  
وقفت أمام ضابط التحقيق فكان سؤاله الأول:

-لماذا سافرت إلى غزة؟

-ولماذا قعدت أنت ولم تسافر؟ أنا من يحق لي مساءلتك وليس أنت.

ضربني أحد الجنود بعصا غليظة أسالت الدماء على وجهي.. اضرب أيها الوطن أبناءك.. حاسبني على حبي لك.. فأنا متهم لديك بحفظ كرامتك.. فما جزاء من أراد بك خيراً إلا أن يسجن أو عذاب أليم.. أرسل أيها الوطن المخدر قطعان الذئاب لسحل أسودك.. فهذا زمن العواء وليس زمن الزئير.. متهم أنا بالتعملق في زمن الأقسام والصدق في وطن الكذابين.

تذكرت تلك الأسطورة القديمة التي تحكي أن قرية الصادقين الشجعان تلوث نهرها بداءي الكذب والجبن فأصبحت القرية تهذي بالجنون وتتحدث بغير الحق وتسمي الخيانة سلامًا والقهر أمنًا والجبن وداعة والوشاية أمانة! فلما حرّم قائدهم عليهم أن يشربوا من النهر المدنس وجد أن كل من حوله قد تلوثوا بداء الحقارة.. وتقدم إليه وزيره الأمين؛ إذ كان الوحيد الذي لم يشرب من نهر الكذب.. فقال للقائد: "إما أن تظل على نقائك فيقتلوك وإما أن نشرب سويًا كأسين من النهر لنصبح مثلهم نتحدث بكذبهم وندجل معهم ونقلب الوجوه لترقص على كل الحبال". لست أدري ماذا فعل هذا القائد النبيل.. أقف الآن موقفه.. يعرض عليّ الظالمون كأس المهانة لأتجرع نصيبي من الصمت فيرضوا عني أو أظل صائمًا عن حقارتهم فينزلوا بي سوء العذاب. أيها القائد قل لي بربك هل شربت الكأس لأشرب معك أم أنك اخترت أن تموت بيد قومك حتى يوقظهم موتك ذات يوم؟

قام الضابط عن مكتبه وتقدم نحوي يدور حولي مثلما تدور الضباع حول أسد جريح تبحث عن أضعف ما به لينهشوه حيًّا.. يا إلهي ليتهم لا ينتهون لقلبي.. فهذا دائي الذي لم أجد له دواء وضعفي الذي يفقدني قوتي.. أرجوكم لا تنظروا داخل قلبي حتى لا تبصروا وجه سارة.. سارة التي أحببتها فهجرتني.. مثلك هي يا مصر كلما قدمت لها يد الحب لوّحت لي بيد العذاب.

سألني الضابط:

همل تنتمي إلى الإخوان؟

همل أنتمي لمصر.

ضحك ساخرًا:

همل ما زلتتم ترددون هذا الكلام؟

ألم تزل مصر موجودة أم تراكم اعتقلتموها هي الأخرى؟

همل تظنون أنكم وحدكم من تحبون مصر؟ أنا أحقق معك الآن من أجلها لأنك تعرض أمنها للخطر.

كذبت.. فكل طاغية يسليخ الأمة بحجة حفظ الوطن.. لكن ما عاد كذبكم ينطلي علينا.. ما عاد السجين يؤمن بصدق السجن.. أي خطر فيما فعلت؟ ما الذي يعرض مصر للخطر حين أداوي أطفال غزة وأستنقذهم من بين موت اليهود؟ أنا جراح أداوي جرح الأوطان الدامية على أيديكم؟

أخلع ملابسك.

فخلعت قميصي.

لا.. كلها.. أريد أن أراك كما ولدتك أمك حين فرجت قدميها أمام طبييب مثلك.

جردوني مرغمًا.

عروني كيف شئتم فقد عريتم عورة الوطن من قبلي.. سقطت أوراق التوت عن سواة آدم لأنه أكل من شجرة المعصية.. فهل تسقطون ورق التوت عني لأني أكلت من شجرة الوطن؟ أي جريمة فعلت حتى أذع الثمن؟ أي عارٍ أن يحاكم الخونة أمانة الأمناء! ما زلت أسمع الصيحة القديمة من حناجر المدنسين: "أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ".. نعم أخرجونا من مصرنا؛ لأن مرآة الشرف تفضح وجوه الخزي.. والجمال يعري سواة القبيح.. أنتم تسقطون رداء الوطن قبل ردائي وعريتموه قبل أن تعروني.. ففي مصر نحن لا ندفع ثمن أخطائنا فقط بل كثيرًا ما ندفع ثمن فضائلنا أيضًا.

مكثت في المعتقل لشهور بغير تهمة أعرفها ومن دون محاكمة.. لا فرق عندي بين سجن يمتد بين أربعة جدران وسجن يمتد من النهر إلى البحر ما دام السجن واحدًا والتهمة معدة سلفًا: رفض الخضوع ومخالفة دستور الصمت. طاف بخاطري "هاشم الرفاعي".. ذاك الشاعر الذي قتله سجان سابق بالتهمة ذاتها: تهمة الضجيج.. تهمة الكفر بالهبة الصمت في زمن الطغاة. وفي تلك اللحظة الرمادية التي تمر بصدر كل نائر تردد في أذني قول هاشم:

"ما الذي بالثورة الحمقاء قد أغراني؟

ما ضرني لو قد رأوني مثل الجموع أسيرٌ في إذعانٍ؟

وهل سأكون في تاريخنا متأمراً أم هادم الأوثان؟

كل الذي أدريه أن تجرعي كأس المذلة ليس في إمكاني ..

هل دفعت ضريبة حبك يا مصر أم أن فاتورة الجراح ما زالت  
مثقلة بثمنها الباهظ؟ هل ارتكبت حماقة حين صرخت بـ"لا" حين يردد  
الجميع "نعم"؟

ما قاتلت في غزة إلا من أجلك يا مصر.. فهل جنائتي أنني أردت أن  
أحمي الثور الأبيض بإنقاذ أخيه الأسود؟ فهذا زمن الأوضاع المقلوبة  
والأوراق المختلطة يشك فيها الأمين في معنى الأمانة ويبدو الصدق بنكهة  
الهلاك والكذب بمذاق النجاة!!

لكن لا بأس.. صدقت يا هاشم فأنا أحتمل كل شيء غير أن  
تجرعي كأس المذلة ليس في إمكاني.

تراك نسييتي يا سارة؟ فأنا لم أنس إخفاقي معك وخسارتي لك..  
لماذا تفرضين وجودك على خارطتي هنا في مصر وهناك في الحرب وحتى  
هنا في زنزانتي؟ لقد هزمتُ عدو أمتي وعجزت أن أهزم حبك في صدري أو  
أهزم ضعفي في حبك.. فليست المعارك كلها قابلة للفوز والخسارة.. ففي  
معركة الحب لا تخرج منها إلا قتيلاً أو جريحاً.. ضحيتك أنا يا سارة في كل  
المواقع.

أطلقوا سراحي أخيراً بعدما عجزوا عن إلصاق تهمة تم إعدادها  
سلفاً لكن لم يجدوا عليها دليلاً!

ورجعت إلى بيتي.. ما عدت أطيق وحدتي ولا وجودي بين الناس..  
كيف أستريح وأنا غريب عن ذاتي مفارق لنفسي وحلمي وأملي؟

قابلت "محمد" فأخبرني أنه أجل زفافه على علياء حتى يطمئن  
على سلامتي.. أفرحني الخبر.. وقلت له: إذا لم تعد لك حجة.. حان لك أن  
تدخل قفص الزوجية أيها العصفور الكبير.

جاء موعد الزفاف.. حملت باقة من الزهور لأجمع بها بينهما.. وأنا  
من يمنحني باقة لأجلك يا سارة؟

علياء.. حافظي على محمد فلم ألقَ بحياتي قلبًا أطيّب منه ولا  
رجلاً أنبل منه.

سأمنحه قلبي وأظله بأهدابي.. فهو زوجي وحيبي.

وأنت يا محمد حافظ عليهما.. فهي جوهرة في زمن المصوغات  
المزيفة.

أمسكت بيدها ويده وشبكت بينهما لأنسحب الانسحاب الأخير..  
تزوجا أيها الطاهران ولتسقي بركات السماء حكما ليطرح ثمار  
السعادة.. أخيرًا شعرت ببرد الفرح في قلبي المثقل بالألم.. كانت عيونهما  
مفعمة بالصدق.. كل منهما يمسك بيد حبيبه.. بيد كثره الحلال.

مرت شهور على زواجهما وأنا كشهاب تائه في جوف الظلام لا هو  
إلى النجوم ينتمي ولا هو في الأرض يجد مثواه.. جاءني محمد باسمًا:

حلياء حامل.. والطبيب أكد لنا أنه ولد.. قررنا أن نسميه  
"عاصم".

امتألت عيناى بالدموع:

لا يا محمد.. لا تمنحوا هذه الدنيا "عاصم" آخر تعذبه وتفعل  
به ما فعلت بي.

ضمي لصدرة بحنان صديق.. بحنان أخى الذى فقدته.. وأمى التى  
رحلت.. وسارة التى خسرتها:

سيعوضك الله خيراً.. وسترى "عاصم" الصغير وهو يكبر سعيداً  
بين أبويه وعمه عاصم الكبير.

بارك الله لكما فيه.. أحسن تربيته واجعله مثل أبيه نبيلاً رحيماً.

أخبرنى ماذا تنوى أن تفعل يا عاصم.. أئن تعود لعملك؟

كلا.. فقد قررت السفر إلى لندن فلتحتلمنى بلاد الغربه إذ  
لفظنى وطنى.. الآن فقط أدركت ما كان يشعر به أحمد.. فليس  
من شيء أثقل وأشد قهراً من شعورك بأنك مطعون بيد  
الحبيب الذى تحسبه ظهرك وحاميك.. يد الوطن الذى أردت  
أن أمنحه الحياة فمنحنى الموت.. تمنيت أن أسقيه العسل  
فسقانى كأس حنظل.. أصبحت أعيش فى ظلال اليأس يتسرب  
إيمانى بكل شيء وتتلاشى قناعاتى.. طعم الجراح يغص فى  
حلقى.. سأذهب إلى لندن أكمل دراسة الدكتوراه وأعيش بين  
الغرباء.. على الأقل بينهم سأفهم لماذا أنا غريب.. أما هنا فغربتى

بين قومي الذين يتحدثون بلساني ويأكلون الطعام نفسه ويرددون النكات نفسها.. لم أعد أشعر بدفء شمسنا.. أرى النهر الحزين يسير إلى مصبه خاضعًا ذليلاً وليس عاشقًا يتوق شوقًا للبحر.. الأرض صارت ترفضني وأرفضها.. حتى الهواء يدخل صدري كارهاً وأخرجه أنا مغضبًا.. رافضًا ومرفوضًا.. سأرحل عن مصر فقد أحتمل كل شيء إلا لحظة أشعر فيها أنني أكره وطني.. ما زالت مصر هي قدس الأقداس الذي عجزت عن فهمه.. نصلي في محرابها خاشعين ونحن لا ندرك سرها.. تعيش فينا على الرغم من الألم.. تخرجنا فنيكي لأجلها.. تقتلنا فنطلب لها الرحمة والحياة.. إذا لم أستطع أن أراها حرة فعلى الأقل برحيلي لن أراها معذبة.. ومن يدري؟ ربما يأتي يوم نعود إليها بقلب جديد وأمل جديد وحلم جديد نحققه على أرض واقعها ولا نستطيع غريان الليل إجهاضه.. أما الآن فلم يعد أمامي سوى الرحيل يا محمد.

لك الله يا صديقي.. لك الله يا رفيق العمر.. متى ستسافر؟

بعد أيام ثلاثة.. فقد أعددت كل شيء واتصلت بأمي أخبرتها بأمر سفري.

جاء محمد ليوصلني إلى المطار.. وعلى بوابة الفراق وقف باكياً:

همل سنفترق؟ كيف لي أن أتخيل وجودي بمصر من دونك يا صديقي الوحيد؟!

ابتسمت وقبلت جبينه: لا بأس يا محمد.. هذه أقداري  
وسأحتملها بصبر رجل.. فقد جئت إلى هذا العالم في التوقيت السيئ..  
دائمًا كانت تسبقني السعادة بخطوة أو أسبقها أنا بخطوة.. لكن لم نلتق  
أبدًا لا في الزمان ولا في المكان.. فالسعادة ليست مقرونة بأسبابها فقط..  
لكن بتوقيتها أيضًا.

إن لم تأتِ السعادة في وقتها استحالت حزنًا ومأساة.. ذهب أخي  
إلى العراق في التوقيت السيئ وعاد لمصر في التوقيت الأسوأ.. وأحببت أنا  
سارة حينما كانت غارقة في حب غيري وأحببني هي في الوقت الذي قررت  
فيه أن ترحل عني.. بحثت عن حرية الوطن في زمن السجن الكبير وبحثت  
عني الوطن في وقت لا يصلح إلا للغربة والضياع.. هكذا تجري الأمور  
دائمًا.. فلا تتحقق الأشياء الرائعة إلا في التوقيت السيئ والموعود غير  
المناسب. وداعًا يا محمد.. وداعًا يا صديقي.

صعدت إلى الطائرة وظل السؤال يتردد في داخلي في سنوات الغربة  
ومواطن الغربة: "هل أنا من أسأت لك يا مصر.. أم أنت من أساء لي؟"  
فنحن لا نرحل عن أوطاننا إلا بعد أن ترحل هي عنّا أولاً.

---

تمت

القاهرة 2010-06-09

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر



Noon\_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372 011-27772007